سلسلة التفسير الأصوليّ

الكتاب الأول

التفسير الأصولي: المنهج والتأسيس

د. محمد بن بشر القباطي

mhmdalqbty1@gmail.com

1442هـ-2021م

كوالالمبور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[1].

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد فإن الله تعالى قد أنزل القرآن الكريم على خير خلقه عليه الصلاة والسلام؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرّ والفساد إلى الخير والصلاح، ومن ضنْك الحياة إلى سعادتها وسعتها، ومن الضعف إلى القوة، ومن العجز إلى القدرة، ومن الذلة إلى العزّة، وليقدّم للبشرية أكمل الحلول وأحسنها، ويفتح لها أبواب الرحمات والبركات، ويغلق دونها منافذ الفتن والشرور والسيئات.

وللقرآن العظيم من الجلال والجمال والكمال والكرامة ما لا يحيط به علمًا إلا الله تعالى.

ولكلّ سورة في القرآن الكريم أصل ثابت جليل جميل، تجتمع معاني السورة عليه، وترجع إليه، وهي أصول بالغة المنتهى في الإحكام والإتقان، والكمال والجمال، ولهذه الأصول فروع ممدودة غير معدودة ولا محدودة، وللفروع أُكُلٌ دائم وظلال، يصدق فيها قول ربّ العزة والجلال: ﴿أَلَمْ تَرَ

[1] سورة الفاتحة الآيات (1-8)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

وما توسّع أحد في تدبّر القرآن الكريم، واسترسل في تتبع أصوله وفروعه إلا انقطع فكره عن الإحاطة بتلك المعاني المديدة، الغائرة في الآفاق البعيدة، التي لا يزيدها التأصيل والتفريع إلا تماسكًا واتّساقًا، يشدّ بعضها بعضًا مع السلامة من كل ريب، والنقاء من كل عيب، ولا ينقلب قلب المتدبّر خاسئا حسيرًا، ولا ينقطع كسيرًا، بل يؤوب ملآن ريان؛ بما أدرك من فيوض القرآن، وبما حاز من مواهب الربّ الكريم المنّان.

وما أذن الله تعالى لي بالدخول في رياض القرآن الكريم، إلا وفتّحت لي من جنان المعاني الأبواب، فأجد فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذّ الأعين، ممّا يغني النفس ويقني، ويؤنس القلب ويروي، ويملأ خزائن الرغبات، ويطفئ لوعة المنهوم؛ حتى لا يجد في وعائه مسلكًا لمزيد جواهره، ولا في طاقته طوقًا لضمّ ذخائره، وما يسطّره المفسرون بعدُ بأقلامهم، إنما هو تصوير لتلك الحقائق التي شاهدوها، وليس الخبر كالمعاينة، فليس في وسع من أُنزل في مغانيها، فطعم وتنَعّمَ أن يُمدّ سامعيه ممّا رآه وذاقه في تلك الجنان، كيف وهو لا يجد إلا كَلِمًا ورمزًا؟ وأحسن المفسرين صنعًا أحسنهم دلالة على ما رأى من آيات ربه الكبرى.

---

[2] سورة النحل الآية (24-25)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهـم متفـاوتون فيمـا أُذن لهـم وفُـتِح علـيهم؛ لأن رياض القـرآن الكـريم كجنّـات النعـيم درجـات ومنـازل، بعضـها فـوق بعـض، وألـوان نعيمهـا لا تحصـى، ﴿نَرْفَـعُ دَرَجَـاتٍ مِّـن نَّشَـاء وَفَـوْقَ كُـلِّ ذِي عِلْـمٍ عَلِـيمٌ﴾[3]، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّـذِينَ اصْـطَفَيْنَا مِـنْ عِبَـادِنَا فَمِـنْهُمْ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ وَمِـنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِـنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[4].

ولقـد تتبعـت كثـيرًا مـن كتـب أئمـة التفسـير، ومـن تـبعهم بإحسـان، فرأيـت مـا رأيـت مـن تفـاوت درجـات الفتوحـات والبركـات، فأجـد أحـدهم يكتـب الصـفحات، وهـو قـائم بالبـاب لا يفـتح لـه، وأقـرأ الكلمـات المعـدودة لمـأذون لـه، فتأخـذ بمجـامع الفـؤاد، وأجـد فيهـا ريـح جنـان القـرآن زكيّـاً نـديًّا؛ حتى إني لأقول: إن هذا المعنى لحديث عهد بربّه!

وقـد وصـف العلّامـة الـرازيّ تجربتـه في تـدبّر القـرآن المجيـد قـائلًا: "وأنا أقـول: إني كلّمـا تأمّلـت في أسـرار القـرآن، اقشـعرّ جلـدي، وقـفّ علـيّ شـعري، وحصلت في قلبي دهشة وروعة"[5].

ولا عجـب! "فـإن القـرآن لـه شـأن اختصّ بـه، لا يشـبهه كـلام البشـر: لا كـلام نـبيّ، ولا غـيره، وإن كـان نـزل بلغـة العـرب، فـلا يقـدر مخلـوق أن يأتي بسـورة مثلـه"[6]، "وأسـرار القـرآن الكـريم أكثـر وأعظـم مـن أن يحـيط بهـا عقـول البشر"[7].

---

[3] سورة يوسف الآية (76)

[4] سورة الواقعة الآية (32)

[5] الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3، 1420 هـ، ج26/ 447

[6] انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، 2005م، ج16/536 بتصرف يسير.

[7] ابن قيم، محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، مكتبة نزار الباز – مكة المكرمة، ط1، 1996م، ج1/50

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفّر دواعيهم على التدبّر، وتجرّدهم للطلب، ويكون لكلّ واحد حدّ في الترقي، أما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مدادًا، والأشجار أقلامًا، فأسرار كلمات الله تعالى لا نهاية لها، فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق في الفهم بعد معرفة ظاهر التفسير"[8].

وقال الفراهي: "والقرآن قد تضمّن من الحكمة والمعارف ما لا يحيط به إلا الله تعالى"[9].

والناظر في أحوال المسلمين يجد تفريطًا عظيمًا في تدبّر القرآن الكريم الذي أمر الله تعالى بتدبّره، فقال عزّ وجلّ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[10]، "فالتدبّر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد"[11]، وقد نقل العلامة الشنقيطي عن المتأخرين من الأصوليين أنهم أصّلوا لهذه القطيعة، وعملوا على ترسيخ هذه الظاهرة؛ حتى قالوا: "إِنَّ تَدَبُّرَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَفَهُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ خَاصَّةً"[12]، واشترطوا لتدبّر القرآن شروط الاجتهاد المطلق، وقد ردّ عليهم العلامّة الشنقيطي ردًّا مفصلًا في بحث عظيم، وأبان ما يشترط لتدبّر القرآن من الشروط[13].

---

[8] الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، ج293/1 بتصرف يسير.

[9] الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ج293/1

[10] سورة محمد الآية (24)

[11] انظر: الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997م، ج209/4

[12] الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1415 هـ، ج258/7

[13] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج256/7-378

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهجيّ في التدبُّر:

لقد بدأت في تفسير نصوص القرآن الكريم والسنّة قبل عشر سنين مستعملًا المنهج الأصوليّ في بيان وجوه الدلالات، وقد عزمت في ذاك الزمان على كتابة التفسير الأصوليّ للقرآن الكريم كلّه بإذن الله عزّ وجلّ، وشرح ما تيسّر من السنّة، وقد أذن الله تعالى لي عام 2017م، فأكملت بفضله ومنّه تفسير سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران بإيجاز شديد.

وقد بدا لي بعد ذلك أن أتوسّع قليلًا، فبنيت منهجي "في التفسير الأصولي" **على أصلين:**

الأصل الأول: تمييز المعاني المؤسِّسة من المؤكّدة ما استطعت.

فأبدأ التدبّر بسؤال نفسي: ما التأسيس وما التوكيد في الآية؟ وما أثر ورود الآية في هذا الموطن من السياق؟ فأنظر في السِّباق (ما سبق الآية)، وأنظر في اللِّحاق (ما ورد بعدها) فإن للسياق والنظام الخاصّ والعامّ أثرًا عظيمًا في معرفة الدلالات، وأنظر في أسباب النزول إن وجدت. ولا أقتحم النصّ منفردًا، بل أستعين بالله تعالى؛ فإنه لا يُوفَقُ إلى معرفة مراد الله تعالى إلا من وَفَّقه الله تعالى، ثمّ أبدأ بدراسة كتب التفسير، وغالبًا ما أبتدئ بتفسير الإمام الطبريّ؛ لأعرف أقوال السلف في الآية، وأُكْثِرُ النظرَ في تفسير ابن كثير، والرازي، والزمخشريّ، وأبي حيّان، والسمين الحلبيّ، ومحمّد رشيد رضا، وابن عاشور، والسعدي ثمّ أطوّف في رياض التفاسير حسب الطاقة.

الأصل الثاني: الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولي في هذا مقامان:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقـــام الأول: مقـــام الشـــهود: حيـــث أجتهـــد في النفـــاذ بقلـــبي وبصـــيرتي إلى باطـــن الـــنصّ، فـــأسمع، وأرى، وأحـــسّ في حـــدود المعـــاني الـــتي استخلصـــتها مـــن القواعـــد، ومـــا يفـــتح الله تعـــالى لي مـــن فضـــله ويأذن بـــه. ولا أكتـــب في هـــذا التفســـير إلا مـــا أراه نافعًـــا بأوجـــز عبـــارة وأبـــين إشـــارة مـــا اســـتطعت إلى ذلـــك سبيلًا.

المقـــام الثـــاني: مقـــام التنزيـــل والتطبيـــق: تنزيـــل الـــنصّ علـــى واقعنـــا؛ لتوجيهـــه وجهـــة الخـــير والنفـــع والصـــلاح، وحـــلّ مشـــكلاته، ومعالجـــة تحدِّياتـــه وفـــق ســـنن الله تعـــالى، فـــإن القـــرآن الكـــريم يجـــدّد الحيـــاة ويرقـــى بهـــا، ويســـقيها شـــرابًا طهـــورًا مباركًـــا؛ فتطيـــب ثمارهـــا، وتمتـــدّ ظلالهـــا، **فأســـأل نفســـي قبـــل الشـــروع في تفســـير الآيات ســـؤالًا جامعًـــا: مـــا الهـــدايات الـــتي يمكنـــني استخلاصـــها مـــن هـــذه الآيـــة؛ لتحســـين أحوالنـــا وحـــلّ مشـــكلاتنا؟ فأبـــذل جهـــدي في تـــدبّر الآيـــة والاســـتهداء بهـــداياتها؛ لاســـتخراج مـــا تيسّـــر لي مـــن المعـــاني والهـــدايات لإصـــلاح أحوالنـــا وحـــلّ مشـــكلاتنا؛ لأن الضـــرورة داعيـــة اليـــوم إلى وصـــل المســـلمين بكتـــاب ربّهـــم؛ لجلـــب المصـــالح ودرء المفاســـد وعمـــارة الحيـــاة بالـــتي هي أحسن.**

وهذا المقام مبنيّ على أمرين:

الأول: فقه الواقع.

والثاني: فقه سنن الله تعالى في العباد.

وإني ليحـــزنني أن أرى فريقًـــا مـــن أمـــتي يتخبّطـــون في الظلمـــات، وهـــم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحملون فوق ظهورهم أعظم سراج، فإذا دعوتهم للانتفاع بنوره، قالوا: انقضى وقته أو ننتظر الفرصة المناسبة! والقرآن هو صانع الفرص!

وإني على يقين بأن ما تحتاج إليه الأمة من حلول لأزماتها ومشكلاتها في العبادة، والسيادة، والريادة للنهوض والتقدّم موجود بين دفتي المصحف، وأن دور المفسّر هو وضع المصحف بين يدي الناس؛ ليدّبّروا آياته بعد أن اتخذه كثير منهم ظهريّا.

وها أنا أنشر هذا التفسير منجّمًا بما تيسّر من الفوائد تأسِّيًا بنزوله منجّمًا؛ لينتفع به طلاب العلم، سائلًا الله تعالى الهدى، والسداد، والإنعام، والإكرام، وأن يتقبل منّي هذا العمل بقبول حسن، وأن يمنّ علي بإتمام هذا التفسير إنه على كلّ شيء قدير.

اللهمّ علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بنا علّمتنا، وزدنا علمًا. والحمد لله رب العالمين.

كتبه: د. محمد بن عبده بن محمد بن بشر القباطي

كوالالمبور

30 رمضان 1442هـ

2021/5/12

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[14]، يفتتح الله تعالى كتابه الكريم بهذه السورة المباركة الجامعة لمقاصد القرآن الكريم[15]، فإنها من أعظم فتوحات الله تعالى على العباد، فهي تعرّفنا بالله ربّ العالمين الرحمن الرحيم، وتبيّن لنا كيف ينبغي أن تكون صِلتنا بالله عزّ وجلّ، وبخلقه.

إنها توثّق الصلة بين العبد الفقير وبين الله الأحد الصّمد، الحيّ القيّوم، ذي الجلال والإكرام، إنها تزكّي قلب الإنسان وتهيّئه؛ ليتلقى كلام الله تعالى، إن سورة الفاتحة هي بحقّ سورة التوحيد والوحدة، توحيد الله تعالى، ووحدة الأمة، إنها فاتحة التشريع الحضاريّ، والمدنيّة الراشدة لمن أسلم وجهه لله تعالى، إنها تفتح أبواب الهداية إلى الله تعالى؛ ليقضي الإنسان عمره في هذه الحياة قائمًا بحقوق الاستخلاف، فلا يضلّ ولا يشقى.

فيا ليت قومي يتدبرون أمّ الكتاب، وما فيها من المقاصد والوسائل؛ ليلزموا أقوم صراط في جلب المصالح ودرء المفاسد، وينبذوا "سَنَن الهالكين" من حياتهم الفردية والجماعية، فلقد أوهنتنا "حمّى الجاهلية" بتتبع أفكارها، ومشاعرها، وسلوكها، وأشيائها.

---

[14] سورة الفاتحة الآيات (1-8)

[15] انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1974م، ج364/3

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن نفوس كثيرٍ من المسلمين أضحت مثقلة بقيم الجاهلية وسَنَنِ اليهود والنصارى، ولا خلاص من التبعية المهلكة إلا بإصلاح صلتنا بالله تبارك وتعالى واتباع الهدى والاستقامة على صراط الذين أنعم الله عليهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[16]:

الاستفتاح بتسمية الله تعالى مفتاحٌ للخير والبركات، مغلاقٌ للشرور والسيئات، ويمكنني إجمال الهدايات في كلمات: البسملة وصيلة وفضيلة ووسيلة.

وصيلة تصل المنقطع، وتقوّي صلة المتصل بالله تعالى، فتصل الضعيف بالقويّ، والفقير بالغنيّ الكريم، والمحتاج بالصمد الوهّاب، والعاجز بالقادر، والجاهل بالعليم الحكيم، والمريض بالشافي، والملهوف بالمغيث الكافي.

وهي توثيق متجدّد للصلة بين العبد وربه، ولهج بالثناء على الغنيّ الحميد، قال الإمام الطبريّ: "إن الله تعالى ذكرُه وتقدَّست أسماؤه أدّب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله"[17].

والبسملة شعيرة وفضيلة ترفع الدرجات، فهي آية من أعظم سورة، لا تعلم نفس ما أخفي لها من أجرٍ في ذكرها هذه الآيةَ، والاستفتاح بها. إنها تجرّدِ العزم من كلّ شائبة شرك، والبدءُ بها فيه اعتصام بالله تعالى وحده، واطّراح لكل ما يُتوسّل به من دون الله تعالى، وإقرار بالافتقار المطلق إلى معونة الله تعالى. فهي أصل من أصول التعبّد.

والبسملة وسيلة، وهي أعظم مفتاح تستفتح به خزائن الرحمات والبركات والمصالح، وتتقى به الشرور والمفاسد، إنها المفتاح الأعظم للبرّ والتقوى،

---

[16] سورة الفاتحة الآية (1)

[17] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، ج1/114

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعاصم من الإثم والعدوان. وهي سرّ كريم، لا يوفق إلى النطق به إلا ذو حظ عظيم، من نطق بها فقد استمسك بالعروة الوثقى، فهدي ووقيَ وكفي، وهي ذكر شريف، من تركه، محقت بركة نعمه بتركه، وكان عرضة لأسباب هُلْكه، وانقطاع سلكه.

ولقد تضمّنت البسملة سرّ الخلق والأمر، ففي مطلعها ورد الاسم الكريم: "الله" ذو الجلال المطلق المستحقّ لتوحيد العبادة، وقد بيّن الله تعالى هذا الاستحقاق في قوله تعالى: "إياك نعبد".

وقد وصف لفظ الجلالة بصفتين كريمتين حُسنَيَيْن: "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فكلّ نِعم الله تعالى المتدفقة على الخلق من فيض رحمته، فهو ذو الإكرام والإنعامّ، المستحقّ لتوحيد الاستعانة، وقد حصرت الاستعانة بالله وحده، قال الله تعالى: "إياك نستعين"، وهذان المعنيان: توحيد الألوهية، وتوحيد الاستعانة تكرر ذكرهما في مواطن كثيرة، ففي آية الكرسي قال ربّنا سبحانه: "اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ"، وفي سورة الإخلاص قال تعالى: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ".

ولفظ الجلالة "الله": عَلَمٌ على الأحد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الحيّ القيّوم، ذي الجلال والإكرام، وقد أضيف إليه لفظ: "اسم"، فاسم: من صيغ العموم، يعمّ أسماء الله الحسنى؛ لكونه نكرة مضافة إلى معرفة.

ويقوّي القول بالعموم قوله صلى الله عليه وسلم: "مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي؛ إِلا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا". فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَلا نَتَعَلَّمُهَا؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»"[18]، قال السعديّ: "بِسْمِ اللَّهِ أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ "اسم" مفرد مضاف، فيعمّ جميع الأسماء الحسنى"[19]. والباء في "بسم": للتوسُّل والاستعانة.

"الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ": وصفان للثناء الجميل على الله سبحانه، واختصاصهما بالذكر في هذا الموضع فيه إشارة إلى عظمة رحمة الله بالعباد، فبرحمة الله تعالى تجري نِعَمُ الخلق والرّزق والهداية (الإيجاد والإمداد والإرشاد) في المعاش والمعاد، والقرآن الكريم كلّه رحمة ونزل برحمة الله عزّ وجلّ على من أرسله ربّنا عزّ وجلّ رحمةً للعالمين محمّد عليه الصلام والسلام.

وهنا سؤال: لم وصف لفظ الجلالة بصفتي: الرحمن الرحيم في البسملة مع القول بالعموم في الاسم المضاف إلى الله؟

الجواب: أنه لما كانت البسملة يفتتح بها سور القرآن الكريم، وكان القرآن أعظم رحمة وأكرم نعمة، ناسب أن يؤكَّد وصف الاسم الأعظم بصفتي الرحمن الرحيم مدحًا وثناء؛ للإشارة إلى عظمة هذه الرحمة والنعمة.

والثاني: لم كانت البسملة ليست بآية في بعض القراءات؟

والجواب: فيه إشارة إلى كمال معنى البسملة واستقلاله، وكذلك كمال سورة الفاتحة بدون عدّ البسملة آية منها، والبسملة مقدمة الفاتحة

---

[18] أخرجه أحمد في مسنده (391/1)، وصححه الألباني في الكلم الطيب برقم (124)

[19] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، 1420هـ -2000 م، ج39/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اتصالًا واستقلالًا، هذا ما بدا لي الآن، والله تعالى أعلم وأحكم.

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[20].

"الْحَمْدُ": هو الذّكْر الكريم الذي يلهج به كلّ شيء "وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ"، وهو أصل من أصول التعبّد، وهو المجتبى عند حصول الإنعامّ، وهو للأعمال مسكُ الختام، وهو مفتاح خزائن الرحمة لمن أراد المزيد.

وهو من أجلّ الطاعات أجرًا، كما بيّن ذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله: "الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض"[21].

و"الشكر خالص لله جل ثناؤه دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كلِّ ما برَأَ من خلقه بما أنعم على عباده من النِّعم التي لا يُحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحدٌ، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلَّفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وَغذَاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم لذلك عليه، ومع ما نبَّههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدِّية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم. فلربِّنا الحمدُ على ذلك كله أولا وآخر"[22].

"وقد أثبت بقوله: "الحمد لله" أنه مستحقّ لجميع المحامد لجلاله وكماله وأشار إلى أنه يستحقّه أيضاً؛ لأنه ربّ العالمين، الرحمن الرحيم،

---

[20] سورة الفاتحة الآية (2)

[21] مسلم، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، المسمى بصحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: 1392هـ، ح223، ج1/ 203

[22] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج135/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مالك يوم الدين[23].

منطوق الآية: "الحمد": لفظ عامّ، قال الشنقيطي: "الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الْحَمْدُ) لِاسْتِغْرَاقِ جَمِيعِ الْمَحَامِدِ"[24].

"لله": قال البغوي: قوله: "لله" اللام فيه للاستحقاق"[25]؛ لأن الله وحده هو المستحقّ للحمد كله على كل حال.

"رب العالمين": وصفٌ لله تعالى بربوبيته المطلقة للعوالم الظاهرة والباطنة العليا والسفلى، وهذه الربوبية لا يشاركه فيها أحد، فهو وحده الربّ: الخالق القيوم الرزاق الهادي، المستحقّ للحمد كلّه، والعالَمون كلهم عباده، هو وحده المنعم بنعمة الخلق (الإيجاد)، والرزق (الإمداد)، والهداية (الإرشاد). والإقرار بربوبية الله للعالمين

"العالمين": لفظ عامّ؛ لأن "أل": للاستغراق، فكل عالَم داخل في هذا العموم، فيشمل كلّ المخلوقات.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[26].

وهذان الوصفان الكريمان للثناء على الله تعالى بصفة الرحمة التي وسعت كل شيء، "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا"، "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ". وقد تقدّم ذكرهما.

---

[23] انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج28/1

[24] الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1415 هـ - 1995م، ج5/1

[25] البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4 1997 م، ج52/1

[26] سورة الفاتحة الآية (3)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[27].

وهو وصف لتمجيد الله الواحد القهار عزّ وجلّ؛ بما له من الملك المطلق في ذلك اليوم العظيم، "يوم الدين": يوم الجزاء الأكبر بالخير والشر، يوم البعث والعرض والحساب، يوم الفصل والعدل والفضل.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[28].

منطوق الآية: تقديم "إياك": للحصر، وإفراد المخاطب للتنصيص على التوحيد، والتعبير بنون المضارعة: يدلّ على جماعية الانبعاث لهذه الأمة عبادة واستعانة وعلى تجدّده، "وقَدَّم العبادةَ على الاستعانة لأنها وَصْلَةٌ لطلب الحاجة، وأطلق كُلاًّ من فِعْلي العبادة والاستعانة فلم يَذْكر لهما مفعولاً ليتناولا كلَّ معبودٍ به وكلَّ مستعانٍ، عليه"[29].

ومفهوم المخالفة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بأحد سواك، وفي هذا تصريح بإخلاص التوجّه لله وحده، وتسليم الوجه لله رب العالمين، والبراءة من كلّ شركٍ، قال ابن سعديّ: "وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "[30]. ويناسب الإخلاص أن يأتي بعده طلب الهداية باتباع الدين القيِّم، صراط الهادي عليه الصلاة والسلام، صراط النبيين والصدقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، فمتى اجتمع للعبد الإخلاص والاتباع، انتظم حاله في سلك الذين أنعم الله عليهم بالمنزلة التي تأهّل لها، نسأل الله تعالى أن يرفع درجاتنا.

---

[27] سورة الفاتحة الآية (4)

[28] سورة الفاتحة الآية (5)

[29] السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج61/1

[30] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ج39/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[31].

قال الإمام الطبريّ: "أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب"[32]، فالصراطُ السّوي المستقيم هو أقرب السّبل الموصلة إلى الغايات، وكل سبيل غيره معوّج ولا حصر للسّبل المعوجة، والمهتدون درجاتٌ: السابقون، والمقتصدون، والظالمون أنفسَهم، فلما اختلفوا في تحديد الأولويات، وتفاوتوا في توظيف الطاقات لاجتلاب المصالح واجتناب المفاسد حالا ومآلا، تفاوتت منازلهم.

---

31 سورة الفاتحة الآية (6)

32 الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 170

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنطوق: "اهدنا": صيغة افعل للدعاء، وإفراد المخاطب- تقدّست أسماؤه- بالطلب إقرار بتوحيد الربوبية، وجمع ضمير المتكلّمين فيه إشارة إلى وحدة الأمة مسيرًا ومصيرًا، والهداية درجات متفاوتة في الحسن والمثوبة، وهي محض فضل يختصّ به الله من يشاء من عباده، ومن حُرم الهداية أهلكته الغواية، و"الصراط": "أل": للاستغراق، وخُصّص بالصفة بعده، "الْمُسْتَقِيمَ" صفة مخصّصة، ويجوز أن تكون "أل": للعهد أي: الصراط المعهود الخاصّ، وهو الإسلام، "الْمُسْتَقِيمَ" صفة كاشفة للمدح، وإفراد الصراط في القرآن كثيرٌ جدًا، ولم يرد بصيغة الجمع في القرآن الكريم، والصراط المستقيم هو الجامع لكلّ خير وصلاح، والمانع من كلّ شرّ وفساد وضير.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[33].

"صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ" "صِرَاطَ" بدلٌ من "الصراط" بدلَ كلّ من كلّ، "وفائدتُه التأكيدُ والتنصيصُ على أن طريق الذين أنعم الله عليهم، وهم المسلمون هو العَلَمُ في الاستقامة، والمشهودُ له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهمُ عند ذكر الطريقِ المستقيم إلا إليه. وإطلاقُ الإنعامِ لقصد الشمول، فإن نِعمةَ الإسلام عنوانُ النعم كلِّها، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها"[34]. "الَّذِينَ" الموصول يعمّ كلّ مَن أنعم الله تعالى عليهم، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[35]. والاستقامة على سَنَن المهتدين والسّباق على الصراط المستقيم

---

[33] سورة الفاتحة الآية (7)

[34] انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، مرجع سابق، ج18/1

[35] سورة ال**نساء** الآية (69)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجعل المسلم في مقدمة الرّكب الحضاريّ، وإن عاداه أهل المشرق والمغرب، وكما أن اتباع سَنَن اليهود والنصارى والهالكين من الفرس والروم ومن شابههم لا يزيد أصحابه إلا ضلالا وخبالا، وإني لأعجب من الذين اتخذوا هذا الدين ذريعة للاختلاف والتخلّف، والعجز والفشل. ترى أين موقعنا اليوم من الصراط المستقيم؟ وأين نحن من سَنَن المغضوب عليهم والضالين؟

فيجب على كلّ مسلم:

- موالاة الأمة المسلمة التي أنعم الله تعالى عليها بالاستقامة.

- والتبرؤ من كل ما يغضب الله، ومن يغضبه من اليهود، ومن شابههم، وعليه اجتنابُ سَنَنِهم.

- والتبرؤ من كل أسباب الضلال، ومن الضالين من النصارى ومن اتبعهم، وعليه اجتنابُ سَنَنِهم.

إن الفاتحة هي مفتاح الحلّ لأزمات الناس ومشكلاتهم، إنها توقفنا أمام الأصول الجامعة للتصوّر الإسلامي للوجود، إنها فاتحة الشريعة الربانية الداعية إلى إقامة الدين ونبذ التفرق فيه، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[36].

"غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ":

"المغضوب عليهم" اسم مفعول، و"الضالين" اسم فاعل، فهما: صفتان صريحتان، والصفة الصريحة: هي كل اسم فاعل أو اسم مفعول أو صفة مشبهة، فإذا دخلت عليها "أل" صارت من صيغ العموم، والصفة

---

[36] سورة الشورى الآية (13)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصريحة بما تشتمل عليه من المعنى تومئ إلى العِلّة وتنبّه عليها، فعِلّة التبرؤ من المغضوب عليهم وقوعُهم فيما يغضب الله تعالى، وعلّة التبرؤ من "الضالين": تلبسُّهم بالضلال. وقد صرّح الرسول عليه الصلاة والسلام بأن: (المغضوب عليهم: اليهودُ، و"الضالِّينَ": النصارى)، قال العلَّامة الألباني: "والخلاصة أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، وصرح بثبوته ابن أبي العز الحنفي في آخر شرحه للعقيدة الطحاوية، وجزم بنسبته إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - شيخُ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (127/3)، وعقّب عليه بقوله: "وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يتبعوه، والنصارى عبدوا الله بغير علم". بل إنه صرح بصحته في مكان آخر منه (64/1). والحمد لله رب العالمين"[37]. وهذا التعيين ليس على سبيل الحصر والتخصيص، بل على سبيل التمثيل؛ لأن اليهود والنصارى أحقّ من اتصف بهذا الوصف الخبيث.

ولقد خلق الله تعالى بعض خلقه؛ ليعبده فلا يعصيه، وهم الملائكة، وخلق خلقًا آخر؛ ليعبده اختيارًا، وهم الجنّ والإنس، وهذا النوع من العبادة له عند الله كرامة عظيمة، وقد رتّب عليها الجزاء الأوفى، فجعل للعبودية مقامات، وللجنّة منازل ودرجات، فأكمل الخلق عبادة أعلاهم درجة، وأكرمهم نزلًا في الجنّة.

ولما كان الهدى الذي أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الأقوم في حفظ الضروريات، والأكمل في رفع الحرج، والأحسن صبغة، وكان مقام رسولنا صلى الله عليه وسلم في اتباع هذا الهدى عبادة واستعانة أتم وأجمل، كانت منزلتُه عند الله تعالى هي الأعلى ونزله في الجنّةِ الوسيلةُ،

---

37 الألباني، محمد ناصر الدين، السلسلة الصحيحة حديث (3263).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما كانت المعاصي متفاوتة، فقد جعل الله عزّ وجلّ النار دركات، وجعل أخبث الخلق عملًا (إبليس ومن اتبعه) في الدرك الأسفل من النار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

الوقوف بين يدي هذه السورة المباركة العظيمة؛ لتدبّر معانيها ومقاصدها مهيب جليل، وقد كتب الأئمة المفسرون في هذا الأمر ما ينير لنا السبيل، وقد تتبعت ما تيسّر من ذلك، وقمت بدراسة خاصّة بمقاصد سورة البقرة، وقد نشرته بعنوان: القاموس المقاصدي: البناء والتوظيف.

مدار هذه السورة على محور واحد وهو التعريف بالكتاب تأصيلًا وتفصيلًا، وله أربعة مقاصد، وهي:

الأول: التعريف بالله سبحانه وتعالى: بأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

الثاني: التعريف بالمخلوقات.

الثالث: بيان الهدى، والتعريف بالمهتدين، وبأحوالهم في الدنيا والآخرة.

الرابع: بيان سَنَن الإعراض عن الهدى، والتعريف بالمعرضين، وبأحوالهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿الم﴾[38]: حروف عربية افتتح بها العليم الخبير السورة لحكمة بالغة.

وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[39].

---

38 سورة البقرة الآية (1)

39 سورة البقرة الآية (2)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعرّفنا الله عزّ وجلّ في مطلع السورة بحقيقة هذا الكتاب الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم.

"ذَلِكَ الْكِتَابُ": "ذلك: مبتدأ، والكتاب": بدلّ (أو خبر)، و"أل": للعهد أو للكمال أي: الكتاب التامّ الكامل، وقد وصفه الله تعالى بوصفين ينتظمان كل ما في القرآن الكريم من الأخبار والأحكام:

الوصف الأول: نفي الرّيب كلّه عن هذا الكتاب المبارك، فلا ريب في صدق أخباره، ولا ريب في عدل أحكامه.

الوصف الثاني: هداية المتقين، فالمتقون مهديّون للتصديق والإيمان بأخبار هذا الكتاب، والتسليم والامتثال لأحكامه، أما التصديق فقد بيّنه تعالى بقوله: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ"، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" وأما الامتثال لأحكام الشرع فقد ذكر شعيرتين من أعظم الشعائر، فالصلاة أعظم الشعائر البدنية، والإنفاق شعيرة مالية، قال الله تعالى: "وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ".

وقد ورد في سورة الأنعام بيان بديع لهذه المعاني، فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[40]، قال ابن كثير: وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا" قال

---

[40] سورة الأنعام الآية (114-117)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قتادة: صدقًا فيما قال، وعدلًا فيما حكم، يقول: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الطلب، فكل ما أخبر به فحقّ لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مَفْسَدة"[41].

"لَا رَيْبَ فِيهِ": الجملة خبر أول، و"لا": نافية للجنس، وفائدتها: التنصيص على عموم اسمها، و"ريب": نكرة في سياق النفي من صيغ العموم، فالقرآن كلّه مبرأ من كل ريب، منزّهٌ من كل عيب، وهو حقّ اليقين، ونفي الريب عن الكتاب كلّه في مطلع سورة البقرة غير مقرون بالبراهين القاطعة أمر مفاجئ للقارئ غير المستسلم لربّ العالمين، وما من كافر إلا وصدره مليء بالشبهات والشكوك!

فكأنّ القرآن يستفزّه ويهيّجه؛ لجمع قدراته العقلية؛ لمواجهة هذا التحدّي، بل ويمهله؛ ليسترسل في استجماع قواه من غير إزعاج؛ حتى يشارف الآية الثالثة والعشرين، فتدهمه الحجة البالغة، ويستوقفه البرهان القاطع، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[42].

إن ذكر "الرّيب" في صدر السورة فيه إشارة إلى خطورة هذا الداء؛ لكونه مانعًا من الانتفاع بهداية القرآن، ونفي الريب أولًا من باب التخلية قبل التحلية، وقد أحالت عواصف الريب قلوب كثير من الناس في هذا

---

[41] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م، ج322/2

[42] سورة البقرة الآية (23-24)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العصر بلاقعَ وقيعانًا لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وإن أخبث عمل يقوم به شياطين الإنس والجنّ هو بثُّ الريب في القلوب بإثارة الأهواء والشهوات التي تمثّل مادة الفتن، فلا يرتاب ولا يفتن إلا من كان في قلبه شبهة أو شهوة.

وقد حوى القرآن الكريم أدوية الريب كلّها، وليس في الأرض كتاب جامع يزيل جميع أنواع الريب إلا القرآن المجيد، وكلّ مرتاب واجد فيه شفاءه، إن انقاد للحق ولم يكابر، فمن تناوله انتفع به، ومن تركه وأعرض عنه لم ينتفع، فالناس مع القرآن ثلاثة أصناف: صنف سمع القرآن فوجد فيه الشفاء لأمراضه، فآمن به واتبعه، فهو كمن وجد الدواء فاستعمله فشفاه الله تعالى بذلك الدواء، وصنف مكابر جاحد، وجد الدواء الشافي فأبى واستكبر، وصنف لم يقرأ القرآن الكريم، ولم يدنُ منه، بل أعرض عنه بالكليّة، فزاده خسارًا. قال الله تعالى: ﴿وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾[43]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[44]، فهو "شفاء لما في الصدور من الشكوك والريب"[45].

"هُدًى لِلْمُتَّقِينَ"، الهدى في هذا الموضع حقيقة شرعية، يشمل هداية الإرشاد والتوفيق؛ لتعلّقه بالمتقين، و"المتقين": صفة صريحة مقترنة ب "أل" من صيغ العموم، وعلّة الاختصاص بهذه الهداية هي ما يوميء إليه الوصف الصريح وهي التقوى؛ لأن في كل صفة صريحة إيماءً وتنبيهًا على

---

[43] سورة الإسراء الآية (82)

[44] سورة فصلت الآية (44)

[45] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج7/ 184

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلـة، والتقـوى حقيقـة شـرعية، وهـي درجـات، فمـن كـان أكمـل تقـى، كـان أحسـن هـدى، ومفهـوم المخالفـة أن هـذا الكتـاب لـيس بهـدى لغـير المتقـين؛ لأنهم استحبوا العمى على الهدى[46].

وقـد قصَـرَ الانتفـاع والهدايـة علـى المتقـين؛ لأنهـم آمنـوا بـه فاسـتفادوا منـه، قـال الله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَـا النَّـاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِـنْ رَبِّكُـمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ﴾[47]، فخاطـب النـاس جميعًـا أنـه قـد جـاءهم هـذا الخـير مـن ربّهـم، ولا ينتفـع بـه إلا مـن آمـن بـه، فليؤمنـوا بـه؛ ليهتدوا به، وقد صرّحت الآيتان الآتيتان بأهم صفات المتقين.

قـال الله تعـالى: ﴿الَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلَاةَ وَمِمَّـا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[48]

"الـذين": اسـم موصـول مـن صـيغ العمـوم، وهـو صـفة للمتقـين للمـدح بمـا هـم عليـه مـن الخصـال الحميـدة، وقـال أبـو السـعود: "الـذين: إمـا موصـولٌ بالمتقـين، ومحلُّـه الجـرُّ علـى أنـه صـفةٌ مقيِّـدةٌ لـه إن فُسّـر التقـوى بـترك المعاصـي فقـط، مترتبـةٌ عليـه ترتّـبَ التحليـة علـى التَّخْليـة، أو صـفة موضِّـحةٌ إن فُسِّـر بمـا هـو المتعـارَفُ شـرعًا والمتبـادرُ عُرفًـا، مـن فِعـل الطاعـات وتـركِ السـيئات معًـا، وإمـا مقطـوع علـى تقـدير النصـبِ أو الرفـع علـى المـدح، لِمـا تقـرَّر مـن أن المنصـوبَ والمرفـوعَ مـدحًا، وإن خرجـا عـن التبعيـة لمـا قبلهمـا صـورةً حيـث لم يتبعـاه في الإعـراب، وبـذلك سُمّيـا قطعًـا، لكنهمـا تابعـان لـه حقيقـة، ألا تـرى كيـف التزمـوا حـذفَ الفعـل والمبتـدأ في النصـب والرفـع رَومًـا؛ لتصـوير كـل منهمـا بصـورة متعلِّـقٍ مـن متعلقـات مـا قبلـه وتنبيهـا علـى شـدة الاتصـال

---

46 انظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مرجع سابق، ج10/1

47 سورة يونس الآية (57)

48 سورة البقرة الآية (3)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينهما، قال أبو علي: إذا ذُكرت صفاتٌ للمدح، وخولف في بعضها الإعرابُ، فقد خولف للافتنان، أي للتفنن الموجِب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجِدّ في الإصغاء، فإن تغيير الكلامِ المسوقِ لمعنىً من المعاني وصَرْفَه عن سَنَنه المسلوكِ يُنبىء عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم، ويستجلب مزيدَ رغبةٍ فيه من المخاطب"[49].

والمقصود بالصفة المقيِّدة في قوله "صفةٌ مقيِّدةٌ... إن فُسّر التقوى بترك المعاصي فقط، مترتبةٌ عليه ترتّبَ التحلية على التَّخْلية" أي: أنها صفة مؤسِّسة لمعنى جديد، وليست مؤكّدة كالصفات الكاشفة.

"الغيب": قال الشوكاني: "وَالْغَيْبُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: كُلُّ مَا غَابَ عَنْكَ"[50]، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل: الغائب، و"أل" للعموم العرفي أي لمعهود عامّ، فيعمّ كل غائب أمرنا الله تعالى بالإيمان به.

قال الله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، "الصلاة": حقيقة شرعية معروفة، وهي أجلّ الطاعات البدنية نفعًا في العاجل والآجل، إذا أقيمت حقّ الإقامة، وما أكثر من يصدق أن يقال فيه: "ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ"، و"أل": لاستغراق كلّ صلاة، و"من": للتبعيض، و"ما": اسم موصول من صيغ العموم، ينفقون من كل ما رزقهم الله تعالى النفقة الواجبة والمندوبة، ونصّ في سورة لقمان على ذكر الزكاة وحدها لتعظيم شأنها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[51].

---

[49] أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج29/1، بتصرف يسير.

[50] الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ، ج40/1

[51] سورة لقمان الآية (4)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[52].

"الواو": عاطفة، و"الذين": اسم موصول عامّ، و"ما": موصول يعمّ الكتب المنزلة من عند الله تعالى، و"الآخرة" أي: بالدار الآخرة هم يوقنون يقينًا لا ريب فيه، وقد وصفهم باليقين بالآخرة تعريضًا بأهل الريب المنكرين للبعث.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[53].

"أولئك": اسم إشارة يعيّن المشار إليهم، "على هدى": على: حرف للاستعلاء، قال الزمخشريّ: "ومعنى الاستعلاء في قوله: (عَلى هُدىً) مَثَلٌ لتمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به"[54]. "هدى": نكرة، موصوفة بالجارّ والمجرور: "من ربهم"، وفي هذا الوصف الجليل تعظيم وتكريم.

"وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ": "هم": ضمير فصل، قال الزمخشريّ: "وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد، وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره"[55]، والظاهر أن الحصر والقصر مبنيّ على تعريف الجزأين: المبتدأ والخبر، والضمير "هم" لتوكيد الحصر لا لتأسيسه، ومفهوم المخالفة: أن غير المشار إليهم ليسوا بمفلحين، وقد بدأ الله عزّ وجلّ بذكرهم في هذه السورة؛ لحسن انتفاعهم بالكتاب العزيز، فأقامهم أسوة حسنة للعالمين، ثمّ ذكر الهالكين الذين لا ينتفعون بروح

---

52 سورة البقرة الآية (4)

53 سورة البقرة الآية (5)

54 الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج44/1

55 الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، ج46/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوحي ونوره.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[56]

هذا كلام مستأنف يصف حالَ الذين استحبوا العمى على الهدى، فأعرضوا عن ذكر الله تعالى. والاسم الموصول: "الذين كفروا": عامّ. "سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ": المصدر المنسبك من همزة التسوية والفعل من صيغ العموم تقديره: إنذارك لهم. "أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ": الفعل في سياق النفي يعمّ. "لَا يُؤْمِنُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ.

ولقد بلغت الشقاوة بهذا الفريق من الناس أن يستوي عندهم إنذار النبي عليه الصلاة والسلام لهم، وإمساكه عن إنذارهم. فهم لا يستجيبون ولا يؤمنون، مع أن إنذاره عليه الصلاة والسلام هو أبلغ أنواع الإنذار؛ لما اختصّه الله تعالى به من الحكمة، وأيده به من الآيات. والإنذار بعد العلم بأنهم لا يؤمنون فائدته إلزامُ الحجةِ وإحرازُ الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الإبلاغ، ولذلك قال: سواء عليهم، ولم يقل: سواء عليك[57]. ومفهوم المخالفة: أن غير الذين كفروا ليسوا كذلك.

قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[58]

"قلوبهم"، و"سمعهم"، و"أبصارهم": نكرات مضافات إلى معارف:

---

[56] سورة البقرة الآية (6)

[57] انظر: أبا السعود، الإرشاد، مرجع سابق، ج40/1

[58] سورة البقرة الآية (7)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من صيغ العموم. ذهب بعض المفسرين إلى أن ذكر الختم والتغشيّة جارٍ مجرى التعليل لما ورد في الآية السابقة من عدم الإيمان[59].

والظاهر أن الآية كلّها تحدثنا عن جزاء من أعرض وكفر، فهي تبيّن العقاب والعاقبة في الدنيا والآخرة، وهذا المسلك أقوى في التأسيس؛ لما فيه من بيان أثر الإعراض في الدنيا. لقد أكرمهم الله تعالى بفِطرة سليمة، وخِلقة قويمة، وزوّدهم بالقلوب، والأسماع، والأبصار، ولكنهم ظلموا أنفسهم فاستعملوها فيما يُسخِط الله تعالى، فأعرضوا، وراغوا، وزاغوا، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا بالختم عليها والتغشية؛ ليزدادوا إثمًا وجُرْمًا، ولهم عذاب عظيم، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[60].

"مِن": للتبعيض، "الناس": للعموم، و"مَن": اسم موصول: عامّ (ويجوز أن تكون "مَنْ" نكرة موصوفة، فلا عموم) وهذا فريق من الناس يعلنون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويخفون صنائع المنكر.

وهذا الصنف هو أخبث الناس، وأشدّهم ضررًا على الأمة، ولذلك أطال الحديثَ عن سرائرهم الخبيثة، وقبائحهم؛ حتى لا يقع المغفّلون من المؤمنين في مكايدهم اغترارًا بأقوالهم الخدّاعة مع ظهور فسادهم في الأرض، وفي المؤمنين سمّاعون لهم! وما أشدّ ما تعانيه الأمة اليوم من هؤلاء المخادعين، ومن أتباعهم المستغفَلين! وقد نفى الله تعالى عن هذا الفريق صفة الإيمان مع ما يتظاهرون به من الطاعات.

---

59 انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج291/2

60 سورة البقرة الآية (8)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[61].

"يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا" يصحّ أن تُحمل هذه الجملة على الاستئناف البيانيّ، فتكون مسوقة لذكر سبب سلوكهم مسلك النفاق، كما يصحّ حملها على الاتصال بما قبلها وإعرابها على الحاليّة من الضمير المستكنِّ في "يَقُولُ"، بمعنى: يقولون آمنا بأفواههم مخادعين الله والذين آمنوا، والجملة على كلا الإعرابين تفيد التعليل، فهم يفعلون ذلك؛ ليخادعوا الله عزّ وجلّ والمؤمنين!

"الذين آمَنُوا ": الموصول عامّ، و"ما يخدعون": "ما" نافية، والفعل في سياق النفي يعمّ، أنفسهم: نكرة مضافة لمعرفة تعمّ كل واحد منهم.

و"ما يشعرون": "ما" نافية، والفعل في سياق النفي عامّ، فلا شعور لهم بهذا الخداع الذي هم واقعون فيه، والعبد إذا فقد الشعور بالداء لم يسعَ في علاجه؛ فيستشري فيه ويهلكه. والمنافقون مبتلون بفقدان الشعور بالأمراض التي تفتك بدينهم وقلوبهم.

قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[62].

"قلوبهم": نكرة مضافة لمعرفة تعمّ، و"مرض": التنكير للتهويل، وما أخبثه من داء يورد أهله النار!

---

61 سورة البقرة الآية (9)

62 سورة البقرة الآية (10)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" "عذاب" نكرة وهي تدلّ على الإطلاق ولكنها قيّدت بالصفة. وقد نصّ القرآن على أن جزاءهم الدرك الأسفل من النار، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[63].

"بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ": "ما" يجوزُ أَنْ تَكونَ مصدريةً أي بكونِهم يكذبون، على القول بأنَّ ل"كان" مصدرًا، قال السمين الحلبي: "وهذا على القول بأنَّ ل"كان" مصدراً، وهو الصحيحُ عند بعضهم" ويجوز أن تكونَ "ما" بمعنى الذي"[64]، وفي كلا الحالين تدلّ على العموم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[65].

"إذا": اسم شرط من صيغ العموم، "لا": ناهية، "تفسدوا": فعل في سياق النهي يعمّ كلّ فساد، والنهي للتحريم، "الأرض": "أل" للعهد، "إنما": للحصر. وهذا الأمر دليل على مبلغ العمى المضروب على بصائرهم، حيث فقدوا القدرة على التمييز بين الإفساد والإصلاح، بل انقلب الفساد لديهم صلاحًا. وهذه الآية تدلّ على أن ثمة ناصحين ينهون هؤلاء المنافقين عن الفساد، وأن المنافقين يجادلون عن فسادهم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[66].

ألا: حرف تنبيه واستفتاح، "إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ" أسلوب حصر وقصر،

---

63 سورة النساء الآية (145)

64 السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج1/130-131

65 سورة البقرة الآية (11)

66 سورة البقرة الآية (12)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقد حصر الفساد فيهم، ومفهومه أن غيرهم ليسوا كذلك.

"الْمُفْسِدُونَ": "أل" لكمال الاتصاف بالشيء، قال البقاعيّ: "المفسدون: كاملو الإفساد بالغون من العراقة فيه ما يجعل إفساد غيرهم بالنسبة إلى إفسادهم عدمًا؛ لما في ذلك من خراب ذات البين، وأخذ المؤمن من المأمن"[67]؛ لأن المؤمن يظنّ أن المنافق أخوه ووليّه، فيغترّ بأقواله وأفعاله، فيفسد عليه دينه ودنياه. "لَا يَشْعُرُونَ": الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا شعور لهم بالفساد الذي يجنونه على أنفسهم، ولا بالفساد الذي يجرونه إلى غيرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[68]

"إذا": ظرفية شرطية من صيغ العموم، "آمنوا": فعل أمر، "كَمَا آَمَنَ" "ما" مصدرية، والمصدر المؤول في الموضعين مضاف إلى معرفة يعمّ، و"الناس": عامّ مراد به خصوص المؤمنين لا عموم الناس، "أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ": استفهام إنكاري، و"السفهاء": "أل" لكمال الاتصاف بالسّفَهِ. "كَمَا آَمَنَ" "ما" مصدرية، والمصدر المؤول في الموضعين مضاف إلى معرفة يعمّ، وسلوك المنافقين يتجدّد باستعمال وسائل الإعلام المتنوّعة؛ لقلب الحقائق، واتهام المؤمنين بالسّفَه.

"أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ": ألا: حرف تنبيه واستفتاح، "إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ" أسلوب حصر وقصر، فقد حصر السّفه فيهم، ومفهومه أن غيرهم ليسوا كذلك. و"لا يعلمون": الفعل في سياق النفي عامّ، فلا علم لهم، ولكنه مخصّص بالسياق أي لا يعلمون أنهم سفهاء لشدة سفههم

---

[67] البقاعي، نظم الدرر، مرجع سابق، ج111/1

[68] سورة البقرة الآية (13)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبلادتهم. وهذه الآية تدلّ على أن ثمة دعاة صادقين يعرفون أهل النفاق، فيدعونهم إلى الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[69].

"إذا": شرطية ظرفية تعمّ، "لَقُوا" الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ لقاء، "الذين": موصول عامّ، "شياطينهم": نكرة مضافة لمعرفة تعمّ، "وَإِذَا خَلَوْا" "إذا": شرطية ظرفية تعمّ، "خَلَوْا" الفعل في سياق الشرط يعمّ كلّ خلوة.

"إنما": أداة حصر، تبيّن هذه الآية شدة القلق والاضطراب والمعاناة التي يتقلّب فيها المنافقون لتمرير خداعهم، والحفاظ على مصالحهم العاجلة في بقائهم بين المسلمين، وفي زمرة الشياطين. فهم يريدون بهذا التلوّن أن يرتعوا سالمين غانمين مع الفريقين بصفتين متضادّتين: الإيمان والكفر، وهم خائفون أن ينكشف أمرهم.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يعمّهُونَ﴾[70].

هذه الآية تبرز سنة الله تعالى في استدراج الطغاة بإمدادهم بأسباب الطغيان؛ ليزدادوا تخبّطًا وعَمَهًا، ويستحقّوا أشدّ العذاب. لفظ "طغيانهم": طغيان نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ أنواع الطغيان.

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ

---

69 سورة البقرة الآية (14)

70 سورة البقرة الآية (15)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[71]

"أُولَئِكَ": القوم المنافقون المخادعون الذين يظهرون الإيمان إذا لقوا المؤمنين، ويظهرون كفرهم لإخوانهم الكافرين هم المتاجرون بالدين. هذه حقيقتهم، وهذه صورتهم! "أُولَئِكَ": (مبتدأ) و"الذين": (خبر المبتدأ) وتعريف المبتدأ والخبر يفيد حصر المتاجرة بالدين في هذا الفريق. "الذين": موصول: عامّ، و"أل" في الضلالة والهدى للعموم أو الكمال، ويجوز أن تكون للعهد أي الضلالة التي هم عليها (النفاق)، والهدى الذي يهدي إليه هذا الكتاب المبارك.

"فَمَا رَبِحَتْ" الفعل في سياق النفي يعمّ، "تِجَارَتُهُمْ": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ، ولكنّ السياق يخصّها باشتراء الضلالة بالهدى، فقد استبدلوا الضلالة التي هي أدنى بالهدى الذي هو خير، فخسروا خسرانًا مبينًا. "وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ": الفعل في سياق النفي يعمّ، إذا قلنا ل"كان" مصدر، أو يتسلّط النفي على المصدر في اسم الفاعل: لا هدى لهم البتّة.

وهذا التصوير البديع (الاستعارة المرشّحة) يلخّص حالهم في أسواق الحياة، وهم يتاجرون بدينهم، يبيعون دينهم وآخرتهم بعَرَض من الدنيا قليل، فيخسرون. وأعداء الأمة يبذلون جهودًا عظيمة؛ لإنتاج مثل هذا التديّن الخبيث الذي يزيد الأمة خبالًا، ويروّجون له، ويسمون أهله بأسماء خلابة كالمستنيرين، والعصرانيين، والمنفتحين، وأنصار التجديد والتحديث، وقد لبسوا ثياب الدين زورًا، فبعضهم ارتدى ثياب الفكر الإسلامي؛ ليَلْبِس الحقّ بالباطل، وبعضهم يحمل مناهج الغرباء، لتغريب المسلمين عن دينهم...

---

71 سورة البقرة الآية (16)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد أتمّ الله تعالى في القرآن الكريم الحديث عنهم؛ ليكون المؤمنون على بصيرة بمن حولهم؛ ليسهُل عليهم درءُ فسادهم، وكفُّ شرورهم، وليحذروا من السير في مسالكهم، وليهلك من هلك عن بيّنة. والعجيب أن كثيرًا من مراكز الفكر والإعلام المعاصرة تستنكف عن ذكر خصال النفاق، وتعدّ الحديث عنها تطرّفًا، وإرهابًا فكريًّا، وما هو بإرهاب ولا تطرّف! ولكنهم قوم يفرَقون من الحقّ.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾[72].

وإني حينما أقرأ هذا المثل أكاد أرى أشباح القوم تتخبّط في ظلمات بحر الجهالة والجاهلية، يغشاها موج الشبهات، من فوقه موج الشهوات، فسدّت عليهم كلّ مسالك العلم، والتواصل، والاتصال بنور الحقّ والهدى؛ حتى إن القارئ يكاد يختنق إن حاول أن يتمثل حالهم!

فما أبأسَ أهلَ الضلالة! وما أشدَّ ضنْكَهم! ومع ذلك فقد استوعبهم الإسلام في مجتمعاته؛ ليضرب للعالمين أجلّ صور الرحمة، والسماحة، والحريّة، وقد أمهلهم، فتركهم وما اختاروه، ولم يصدر فيهم أحكام الخيانة العظمى! أبَعْدَ هذا يزايدُ على رحمة الإسلام، وسعته، وسماحته مزايد!

"الَّذِي": اسم موصول عامّ، و"لما": قال السمين الحلبي: " لَمَّا: حرفُ وجوب لوجوب هذا مذهبُ سيبويه. وزعم الفارسي وتبعه أبو البقاء أنها ظرفٌ بمعنى حين، وأنَّ العاملَ فيها جوابُها، وقد رُدَّ عليه بأنها أُجيبت

---

72 سورة البقرة الآية (17)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ب"ما" النافية وإذا الفجائية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾[73] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[74]، وما النافيةُ وإذا الفجائية لا يعملُ ما بعدها فيما قبلهما، فانتفى أَنْ تكونَ ظرفاً"[75].

و"ما": موصول عامّ، نورهم: نكرة مضافة تعمّ، "ظلمات": نكرة للتهويل والتفخيم. لَا يُبْصِرُونَ" الفعل في سياق النفي يعمّ، فلا إبصار لهم.

قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[76].

"لَا يَرْجِعُونَ" "لا": نافية، والفعل بعدها للعموم، فلا رجوع لهم. وهذا تمثيل لحال صنفٍ ممن مردوا على النفاق، وأوغلوا في الكفر والشقاق، وأوصدوا قلوبهم وكل منافذ الاعتبار، فقد شاهدوا أنوار الحقّ، ولكنهم لم ينتفعوا بها، فسلبهم الله البصر والبصيرة، وختم على سمعهم، وأفواههم، وتركهم في ظلمات محجوبين لا ينفذ إليهم ضياء، ولا يصلهم صوت هدى، ولا تسمع لهم ركزًا.

قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ *يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[77]

---

[73] سورة فاطر الآية (42)

[74] سورة العنكبوت الآية (65)

[75] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج1/160-161

[76] سورة البقرة الآية (18)

[77] سورة البقرة الآية (19-20)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هـذه صـورة جامعـة لحيـاة مَـن استحوذ عليهم النفـاق، فـأيّ حيـاة لمـن أُحصِـر في العـراء ماشـيًا وقائمًـا لا يجـد فسـحة؛ ليضـع جنبـه، بـل يسـوقه صـيّب مسـتمرّ لا يُكِـنُّ منـه شـيءٌ، صـيّب فيـه ظلمـات موحشـة، ورعـد مجلجـل، وبـرق يكـاد يخطـف الأبصـار، وصـواعق مرسـلة تزلـزل الأفئـدة. هكـذا يقضـي المنـافقون حيـاتهم البئيسـة! أيـودّ أحـد أن تكـون لـه حيـاة كهـذه؟ ويكأنـه لا يفلح المنافقون!

ولقـد ذُكِـر المتقـون في أربـع آيات في مطلـع السـورة، والكـافرون في آيتـين، وتـلا ذلـك ذكـر المنـافقين في ثـلاث عشـرة آيـة، وذلـك أن النفـاق مـن أشـدّ الشـرور ضـررًا علـى الأمـة، وقـد بيّنـت الآيات حقـائق المنـافقين باطنًـا وظـاهرًا، وبيّنـت السـنة النبويّـة مـنهج التعامـل معهـم، والنـاظر في فقـه التعامـل مـع المنـافقين في ضـوء مقاصـد الشـريعة والسـنن الإلهيـة يجـد أن الإسـلام قـد سـلك أقـوم السـبل في الحفـاظ علـى نقـاء الاعتقـاد، وسـلامة الـبلاد والعبـاد، فحـافظ علـى السـلام المجتمعـي (الـداخلي المحلّـي)، وخفّـف أذى المنـافقين وضـررهم وفسـادهم علـى الأمـة إلى قـدرٍ يُغتَفـر فيـه السـوء رعايـة للأصـلح، ولم ينقـل الإسـلام الصـراع والتنـازع إلى أعمـاق الأمّـة؛ فتـذهب ريحهـا وقوتهـا، وتصبح قَصْعة مستباحة لكلّ معتدٍ!

"صـيّب": لفـظ مطلـق، "مـن السـماء" ذكـر بعـض المفسـرين أنهـا صـفة كاشـفة، وليسـت بقيـد؛ لأن الصـيّب لا يكـون إلا مـن السـماء، وفائـدة ذكـر هـذا الوصـف كمـا قـال ابـن عاشـور: "جِـيءَ بِـهِ لِـزِيَادَةِ اسْتِحْضَـارِ صُـورَةِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصَّـيِّبِ فِي هَـذَا التَّمْثِيـل إِذ الْمَقـامُ مَقَـامُ إِطْنَـاب"[78]، ويبـدو لي أنـه وصـف للتعظـيم ففـي ذكـر السـماء هيبـة وترهيـب؛ لمـا في السـماء مـن السـعة والعظمـة، وما فوقها من سلطان وجلال ربّ السماء!

و"السـماء": "أل" للعهـد، و"ظلمـات، ورعـد وبـرق": نكـرات للإطـلاق، ويظهـر مـن السـياق أن التنكـير للتهويـل، "أصـابعهم": ظـاهره العمـوم؛ لكونـه نكـرة مضـافة إلى معرفـة، ولكـن الحِسّ يصـرفه عـن العمـوم إلى بعـض الأصـابع، "الصـواعق": عـامّ مـراد بـه الخصـوص و"المـوت": أل للعهـد، "الكـافرين": صـفة صـريحة، و"أل" للعمـوم، "الـبرق": "أل" للعهـد الـذِّكْري فقـد سـبق ذكـره في قولـه تعـالى: "فِيـهِ ظُلُمَـاتٌ وَرَعْـدٌ وَبَـرْقٌ"، و"أبصـارهم": نكـرة مضـافة تعـمّ، "كلمـا": ظرفيـة تعـمّ، قـال السـمين: "كـلَّ نَصْـبٌ على الظرفيـة، لأنهـا أُضـيفت إلى "مـا" الظرفيـة، والعامّـلُ فيهـا جوابُهـا، وهـو "مَشَـوا". وقيـل: "مـا" نكـرةٌ موصـوفةٌ، ومعناهـا الوقـتُ أيضـاً، والعائـدُ محـذوفٌ، تقـديرُه: كـلَّ وقـتٍ أضـاءَ لهـم فيـه، فأضـاءَ على الأول لا محـلَّ لـه لكونِـه صـلةً، ومحلُّـه الجـرُّ علـى الثـاني"[79]. و"إذا" شـرطية ظرفيـة تعـمّ، "سمعهـم": نكـرة مضـافة للعموم، "كلّ": من صيغ العموم.

وفي هـذا المثـل تتجلّـى بعـض طبـائع المنـافقين، فنـرى حُجُـب الـتردد والتذبـذب مخيّمـة علـيهم، ولكـن النـور لم يـذهب بالكليـة، وشمسـه تشـرق وتغـرب، والفـرص تبـدو وتعـزب، وكـأن القـوم في إمهـال وإمـلاء؛ لعلّهـم

---

[78] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر – تونس طبعة 1984م، ج317/1

[79] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج82/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرجعون، فالفرق الذي يبدو لي بين المثلين ملخصه: أن المثل الأول اختفت فيه وسائل العلم والاتصال، فجاء عقِبَه قولُ الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[80]، وفي المثل الثاني يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[81] أي: أن الله تعالى لم يَذهب بسمعهم وابصارهم ...

ولا أعرف أوصافًا نفسيّة أخبث من أوصاف المنافقين، ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم يَبْسط لهم بُسُط الإنابة، ويفتح أبواب التوبة لمن شاء منهم أن يستقيم. إنه دين الرحمة! و"أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَة"[82].

خلاصة المقطع الأول: يتناول هذا المقطع وصف الكتاب بالبراءة من الريب، وبكونه هدى للمتقين، وأصنافَ الناس وجزاءهم، وهم: المتقون المنتفعون بهدى القرآن، وهم المفلحون، والكفار والمنافقون الذين لم ينتفعوا بالكتاب الهادي، فالكفار جزاؤهم عذاب عظيم، والمنافقون لهم عذاب أليم.

---

[80] سورة البقرة آية (18)

[81] سورة البقرة آية (20)

[82] رواه أحمد وحسنه ابن حجر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدأ المقطعُ الثاني من سورة البقرة بدعوة الناس أجمعين إلى عبادة الله بالأمر الصريح مع ذكر البرهان الداعي إلى الاستجابة، وهو الخلق والرزق، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[83].

"الناس": عامّ، "اعبدوا": أمر للوجوب، "الذين" موصول عامّ، "لعلّ": للتعليل، "الأرض" و"السماء": "أل" فيهما للعهد، و("ماء" و"رزق") نكرتان في سياق الامتنان، والنكرة في سياق الامتنان للعموم، وقال العلامة السمين الحلبي: "وإنما نَكَّر "ماء" و"رزقاً"؛ ليفيدَ التبعيضَ، لأنَّ المعنى: وأنزل من السماءِ بعض ماءٍ، فَأَخْرَجَ به بعضَ الثمراتِ بعضَ رزقٍ لكم، إذ ليس جميعُ رزقِهم هو بعضَ الثمراتِ، إنَّما ذلك بعضُ رزقِهم"[84]، وفي هذه التقديرات ركاكة تنفر منها النفس، والذي يظهر لي أن الأوفق لسياق الامتنان هو التعميم، أو التعظيم، والتفخيم، والتكريم، فنقول: "ماء مباركًا، طهورًا "، و"رزقًا طيّبًا، حسنًا، كريمًا"، و"أل" في "الثمرات": للعموم.

وقد راعى العلامة ابن عاشور مقام الامتنان في هذه الآية فقال: "وَ(مِنَ) الَّتِي فِي قَوْلِهِ: "مِنَ الثَّمَرَاتِ" لَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ إِذْ لَيْسَ التَّبْعِيضُ مُنَاسِبًا لِمَقَامِ الِامْتِنَانِ بَلْ إِمَّا لِبَيَانِ الرِّزْقِ الْمُخْرَجِ، وَتَقْدِيمُ الْبَيَانِ عَلَى الْمُبَيَّنِ شَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَإِمَّا زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ تَعَلُّقِ الْإِخْرَاجِ

---

[83] سورة البقرة آية (21-22).

[84] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج193/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بِالثَّمَـرَاتِ"[85]، "لكـم" شـبهُ الجملـة قيـد لـرزق، و"لا تجعلـوا"، لا: ناهيـة، والفعـل بعـدها للعمـوم، والنهـي للتحـريم، و"أنـدادًا": نكـرة في سـياق النهـي تعـمّ كلّ أنواع الأنداد، "وأنتم تعلمون": الواو حالية.

هـذا هـو أول نـداء في القـرآن الكـريم، وهـو نـداء عـامّ للنـاس، وجـواب النـداء هـو الأمـر بعبـادة الله تعـالى، وقـد اجتمـع في هـاتين الآيتـين أصـلان جلـيلان، همـا الأمـر بعبـادة الـربّ، والتعريـف بالـربّ بصـفة الخلـق، والأمـر والخلـق لله تعـالى وحـده، لا يشـاركه فيهمـا أحـد، "أَلَا لَـهُ الْخَلْـقُ وَالْأَمْـرُ"[86]، "فكمـا أنـه لا يخلـق غـيرُه، فكـذلك لا يأمـر غـيرُه، بـل الـدين كلّـه لـه، هـو المعبـود المطـاع الـذي لا يسـتحقّ العبـادة إلا هـو، ولا طاعـة لأحـد إلا طاعتـه"[87]، والخلـق دليـل قـاطع علـى وحدانيـة الـربّ عـزّ وجـلّ واسـتحقاقه للعبـادة وحـده لا شـريك لـه، ولا يوجـد شـيء مـن المخلوقـات إلا ووجـوده معـزّز لهـذا الأصـل، فـلا يوجـد مخلـوق في الكـون يسـاعد المشـركَ علـى الشـرك، ولا الملحدَ على الإلحاد، ولا يترك لهم مستمسكًا إلا المكابرة والجحود.

وعطـف علـى صـفة الخلـق صـفة ثانيـة، قـال ابـن عاشـور: " يتعـيّن أن قولـه: "الَّـذِي جَعَـلَ لَكُـمُ الْأَرْضَ فِرَاشًـا" صـفة ثانيـة للـربّ؛ لأن مسـاقها مسـاق قولـه تعـالى: "الَّـذِي خَلَقَكُـمْ"، والمقصـود الإيمـاء إلى سـبب آخـر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها؛ فإنه لما أوجب عبادته أنه خالق الناس كلهم، أتبـع ذلـك بصـفة أخـرى تقتضـي عبـادتهم إياه وحـده، وهـي نِعمُـهُ المسـتمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته"[88].

---

[85] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 334

[86] سورة الأعراف: (54)

[87] انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، علي بن حسن – عبد العزيز بن إبراهيم – حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، 1999م، ج102/3

[88] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 331

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد اقتصر الله تعالى في هاتين الآيتين على الاستدلال بالخلق على وجوب عبادته وحده، والانقياد لأمره ونهيه، ولو كان هذا الدليل ناقصًا لكان التعليل به معيبًا مردودًا تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وقد أمر الله تعالى الناس بعبادته، وكلّ أمر ونهي في القرآن والسنة مندرج في هذا الأمر أو مؤكّد له، وقد صرّحت الآية الثانية بأكبر النواهي، وهو النهي عن جعل الأنداد لله عزّ وجلّ؛ للتحذير من شرّ هذا المسلك في الدنيا والآخرة، "وأنتم تعلمون" أي: تعلمون وحدانية الله بالبراهين القاطعة ثمّ تجعلون له أندادًا، وفي هذا توبيخ لهم وتسفيه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[89].

جاء الشرط بحرف "إنْ" الذي يستعمل فيما يُستبعد وقوعُه تنزيلًا للموجود (الريب) منزلة المعدوم أو ما لا اعتبار له؛ ومع ذلك يدعوهم الله تعالى؛ ليجادلوا عن معتقداتهم مختارين، فلا يقهرهم على الإيمان قهرًا، بل يسوق إليهم الآيات البيّنات بالتي هي أحسن؛ حتى يميزوا الحقّ من الباطل ببصائرهم.

وكلمة "ريب": نكرة في سياق الشرط تعمّ، و"ما": موصولة تعمّ، و"عبدنا": الإضافة للعهد والتشريف، "فأتوا": الأمر للتعجيز والتحدي، و"بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ": "سُورَةٍ": نكرة للإطلاق، والمطلق يعمّ على جهة

---

[89] سورة البقرة آية (23)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البدليّة، فكلّ سورة صالحة للتحدّي بها، وقد قيّد لفظ "سورة" بشبه الجملة بعده: "مِنْ مِثْلِهِ" أي من جنسه في الفصاحة والبيان وما تضمّنه من العلوم.

و"ادعوا": الأمر لتهييجهم استخفافًا بهم وبمن يركنون إليهم، و"شهداءكم": نكرة مضافة إلى معرفة تعمّ كلّ شهيد من دون الله تعالى، وفي هذا التحدّي برهان قاطع على براءة القرآن المجيد من كلّ ريب وعيب، وعلى صدق الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد أقام الله تعالى الحجة على العباد بأثبت وألطف برهان، وجاء به على غير ما يتوقّعه من في قلبه ريب؛ إذ إنه لم يقل للمرتابين جيئوا بريبكم، فإني أدحضه، وأفنّده، بل جاءهم بدليل جامع يقطع دابر الادّعاءات والمكابرات بأسلوب عدل جامع للخير مانع للشرّ، فقال: هاتوا من عند انفسكم سورة من مثله، إن كنتم صادقين في ارتيابكم وادّعائكم أن القرآن الكريم كلام بشر يمكن الإتيان بمثله.

وفي ورود القرآن الكريم بهذا الجلال والجمال والإحكام نِعمٌ لا تحصى، ولطفٌ عظيم من الله تعالى، ورحمة بالعباد؛ ليستيقن أهل الارتياب، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا، وكم من إنسان عرضت له الفتن والشبهات فيقرأ القرآن الكريم، فتأخذ هذه الآية وأمثالها بنياط قلبه فتجتث الريب من جذوره، فينجو من المهالك؛ ويأوي إلى دين الله تعالى على بصيرة ويقين.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[90].

---

[90] سورة البقرة آية (24)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفعـلان "لم تفعلـوا"، و"لـن تفعلـوا": في سـياق النفـي للعمـوم، أي لا فعـل لكـم البتـة، وقـد عـدل عـن الفعـل: "أتـى" إلى مـادّة "فَعَـلَ"، ولم يـذكر معمـول الفعلـين، موافقـة للواقـع؛ فـإنهم لم يفعلـوا شـيئًا يؤبـه بـه يسـتحقّ تطويـل الوقـوف عليـه، فجـاء الكـلام في غايـة الإيجـاز مبالغـة في التجـاوز والسـماحة مـع أن المـوطن مـوطن تحـدّ، والتحـدّي مظنّـة كسـر المتعـدّي، فقـد كـفّ القـرآن الكـريم عـن ملاحقـتهم، وأعـرَض عـن التشـنيع علـيهم والتـوبيخ لهـم، وطـوى الحـديث طـيّ المحسـن الكـريم؛ لأن المقصـد مـن التحـدّي إصـلاحهم وتأليـف قلوبهم لا كسرها.

ولـذا بادرهـم بمـا فيـه نجـاتهم رحمـة بهـم ولطفًـا، فبـدأ بـدرء المفسـدة، وأكـبر المفاسـد المتقـاة "النـار"، فقـال: "فَـاتَّقُوا النَّـارَ": والأمـر للوجـوب، و"النـار": "أل" فيهـا للعهـد، "وقودهـا" نكـرة مضـافة تعـمّ، و"النـاس والحجـارة" مـن العـامّ المـراد بـه الخصـوص، أو بتعبـير آخـر "أل" فيهمـا للعهـد، والمعهـود هـا هنـا يعـمّ الناس الكافرين وليس جميع الناس.

والحجـارة هـي المعبـودة، وهـي الأصـنام أو حجـارة الكبريـت كمـا ذهـب إليـه كثـير مـن المفسـرين، قـال الشـنقيطي: ﴿فَـاتَّقُوا النَّـارَ الَّـتِي وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَـارَةُ) هَـذِهِ الْحِجَـارَةُ قَـالَ كَثِـيرٌ مِـنَ الْعُلَمَـاءِ: إِنَّهَـا حِجَـارَةٌ مِـنْ كِبْرِيـتٍ، وَقَـالَ بَعْضُـهُمْ: إِنَّهَـا الْأَصْـنَامُ الَّـتِي كَـانُوا يَعْبُـدُونَهَا، وَهَـذَا الْقَـوْلُ يُبَيِّنُـهُ وَيَشْـهَدُ لَـهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: "إِنَّكُـمْ وَمَـا تَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللَّهِ حَصَـبُ جَهَـنَّمَ"[91]. "لِلْكَـافِرِينَ" "أل" للاسـتغراق، تعـمّ كـلّ مـن مـات كـافرًا، والصـفة الصريحة تومئ إلى العلّة.

---

[91] الشنقيطي، الأضواء، مرجع سابق، ج18/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهـذه الآيـة كمـا تـرى مشـحونة باللّطـف والرحمـة بالعبـاد، فهـي تسـوق النـاس إلى سـبيل النجـاة بالبرهـان القـاطع، والنّـور السـاطع سَـوقًا ليّنًـا. فـأيّ تشـريف وأيّ تكـريم اختصّـنا الله تعـالى بـه، ومـا مـن نعمـة ماثلـة بـين أيـدينا إلا ونكـاد نـرى لهـا طَرَفًـا إلا القـرآن المجيـد فـلا نـرى لخـيره منتهـى أو حـدًّا، ولا نحصـي نعمَـه عـدًّا، فـإن اجتمعـت حروفـه تيسـيرًا في كتـاب، فقـد اتسـعت أنـواره وأسراره بغير حساب.

أو مـا تفكّـرت والمصـحف بـين يـديك أنـك تحمـل -أيهـا العبـد الضـعيف- مائـة وأربـع عشـرة سـورة بيّنـة، كـلّ واحـدة منهـا معجـزة تامّـة تامّـة تامّة، تقف الخلائق حيالها خاشعة لجلالها وجمالها! ويحك فلتتدبّر!

قـال الله تعـالى: ﴿وَبَشِّـرِ الَّـذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أَنَّ لَهُـمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ كُلَّمَـا رُزِقُـوا مِنْهَـا مِـنْ ثَمَـرَةٍ رِزْقًـا قَـالُوا هَـذَا الَّـذِي رُزِقْنَـا مِـنْ قَبْـلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[92].

في هذه الآية أصول جامعة، وهي:

الأول: التبشـير: وحقيقتـه في اللغـة: السـبق بإعـلام غـيرك بمـا يُسَـرُّ بـه، "والبشـارة أصـلها الخـبرُ بمـا يُسَـرُّ بـه المخبَـرُ، إذا كـان سـابقًا بـه كـلَّ مُخـبِرٍ سواه"[93].

الثـاني: حكـم التبشـير: ورد التبشـير في هـذه الآيـة بصـيغة "افعـل" "وَبَشِّـرِ"، وهي للوجوب؛ لأنه لا صارف لها.

الثالث: مقاصد التبشير: للتبشير مقاصد كثيرة:

مقاصـد آجلـة: منهـا "إرادة التنشـيط؛ لاكتسـاب مـا يُزلِـف، والتثبـيط عـن

---

[92] سورة البقرة آية (25)

[93] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج383/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اقتراف ما يُتلف"[94].

مقاصد عاجلة: منها إدخال السرور والأنس في قلوب المؤمنين؛ ليسعدوا بها، ويلتذّوا بما تفيض به من الفرح والبهجة على قلوبهم، ولعلّ المفسرين قد استغنوا عن التنصيص عليها بالمعنى اللغوي لكلمة "بشّرْ".

الرابع: أنواع التبشير: ورد التبشير على وجوه متنوّعة، منها التبشير العامّ للأمة، ومنها التبشير لأناس بأسمائهم، ومنها التبشير لمن فعل أفعالًا معيّنة، وقد ورّث الرسول عليه الصلاة والسلام أمته منهاجًا قويمًا كريمًا في التبشير.

الخامس: البشير: المأمور بالتبشير في هذه الآية هو البشير النذير والسراج المنير محمّد عليه الصلاة والسلام، وقد بشّر المؤمنين كما أمره الله تعالى، وقد رجّح الزمخشريّ الإطلاقَ، فقال: "يجوز أن يكون (المأمور بالتبشير) رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وأن يكون كلّ أحد كما قال عليه الصلاة والسلام: "بشّر المشاءين إلى المساجد في الظلم بالنور التامّ يوم القيامة" لم يأمر بذلك واحدًا بعينه. وإنما كل أحد مأمور به، وهذا الوجه أحسن وأجزل؛ لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشِّر به كل من قدر على البشارة به"[95].

أقول: أيّ حسن وأيّ جزالة في مخالفة ظاهر النصّ؟ وتسوية البشير النذير عليه الصلاة والسلام بغيره في وصف من أعظم وأخصّ أوصافه؛ إذ إن

---

[94] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج104/1

[95] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج104/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظـاهر الخطـاب في الآيـة موجّـه إلى الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام؛ ليبشـر المـؤمنين، ثمّ إلى أتباعـه تبعًـا؛ ليبشـروا غـيرهم، ودخـول كـلّ أحـد تبعًـا لصـاحب الرسـالة لا يـنقص مـن الحُسـن والجزالـة، بـل هـو الأصـل الـذي يصـدّقه الـنصّ والواقـع، فهـو المتلقّـي الأول للـنصّ ومبشّـر الأمـة، وتبشـيره عليـه الصـلاة والسـلام بهـذا الأمـر وبمـا هـو أعظـم منـه أقـومُ وأكـرمُ؛ لأنـه أحسـن النـاس بيـانًا وتبشـيرًا، فهـو مبلّـغ الـوحيّ كلّـه ومبيّنـه بسـنته ومنهاجـه، وفي اتبـاعهم للرسـول عليـه الصـلاة والسـلام في التبشـير زيادة خـيرٍ لهـم بطـاعتهم واتبـاعهم لـه، وأمـا التنظـير الـذي ذكـره الزمخشـريّ فهـو تنظـير مـع الفـارق؛ لأن أول متلـقٍّ للأمـر تشـريفًا وتكليفًـا هـو الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، وأمـا الحـديث المـذكور فهـو خطاب من الرسول عليه الصلاة والسلام لعموم الأمة.

السـادس: المبشـرون: "الَّـذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ"، "الـذين" موصـول عـامّ، "الصـالحات": عـامّ. فيجـب تعمـيم البشـرى لكـلّ الـذين "آمنـوا وعملـوا الصالحات"، وعليه فالتبشير أصل، ولا يستثنى أحد من المؤمنين إلا بدليل.

السـابع: الأمـور المبشّـر بهـا: "أَنَّ لَهُـمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ كُلَّمَـا رُزِقُـوا مِنْهَـا مِـنْ ثَمَـرَةٍ رِزْقًـا قَـالُوا هَـذَا الَّـذِي رُزِقْنَـا مِـنْ قَبْـلُ وَأُتُـوا بِـهِ مُتَشَـابِهًا وَلَهُـمْ فِيهَـا أَزْوَاجٌ مُطَهَّـرَةٌ وَهُـمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ"، بـين يـدي هـذه البشـرى يلقـي العاقـل اللبيـب رحالـه لا يبغـي عـن نعيمهـا حـولًا، وقـد صـرحت الآيـة ببعض مـا أعـدّه الله تعالى لعباده المؤمنين:

أحـدها: الجنّـات: "جنـات": مطلـق مقيّـد بالوصـف بالجملـة بعـده: "تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ".

ثانيهـا: الأنهـار: و"أل" للعمـوم، فـتعمّ كـلّ أنهـار الجنـة، وهـي أنـواع: "مَثَـلُ الْجَنَّـةِ الَّـتِي وُعِـدَ الْمُتَّقُـونَ فِيهَـا أَنْهَـارٌ مِـنْ مَـاءٍ غَـيْرِ آسِـنٍ وَأَنْهَـارٌ مِـنْ لَـبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّـرْ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى".

ثالثها: الثمر والرّزق: و"كُلَّمَا" ظرفية تعمّ، "مِنْ" للتبعيض، ("ثَمَرَةٍ" "رِزْقًا") التنكير للتفخيم والتكريم أي: ثمرة طيّبة ورزق كريم، و"الَّذِي" موصول من صيغ العموم.

رابعها: الأزواج: "أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ": مطلق مقيّد بصفة الطهارة من كل عيب حسيّ ومعنويّ.

خامسها: الخلود في الجنّات: "وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، إن الخلود الذي طلبه أبوكم آدم عليه السلام من غير سبيله ستنالونه، فلا تُزلُّون عنه، ولا تُزالون؛ وفي هذا التبشير غاية التشويق والترغيب للمؤمنين، وفيه تعريض بمن يتبعون الشيطان الذي أخرج أبوينا من الجنّة! وتحذير من خطواته؛ حتى لا يفوتنا هذا النعيم "يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ".

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[96].

لما عجز المرتابون عن الإتيان بسورة مختلقة من عند أنفسهم، وبُهتوا، أمرهم الله تعالى باتقاء النّار، فأما العقلاء فاستجابوا لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ولحقوا بالذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمر الله تعالى

[96] سورة البقرة آية (26-27)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسولًه عليه الصلاة والسلام بتبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات بنعيم الجنّة تأليفًا وتشريفًا، فاستبشروا وسعدوا.

وأما الذين شَقُوا فعرفوا الحقّ وانصرفوا ماكرين ومكابرين، فسلكوا سبل التشويه والتشكيك، فانتقل الخطاب القرآنيّ إلى مساق الحماية؛ ليبطل كيدهم ومكرهم وشبهاتهم، ليحفظ الدين من الشكوك والطعون التي يختلقها الفاسقون؛ وهذا مقصد عظيم جامع، ومجال خطير وواسع، وما نراه اليوم من حرب إعلاميّة وثقافية على الإسلام وأهله، وما أنتجته من عداوة للإسلام وتخويف منه (إسلام-فوبيا) ما هو إلا امتداد لتلك الحملات الضارية على الإسلام في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا"؛ لأنه لا يقول إلا الحقّ، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾[97]، والجملة اسمية مؤكّدة ب"إنّ" مبالغة في الإثبات، ودرء التشكيك والتردّد.

و"مَثَلاً" نكرة مطلقة، و"ما" حرف صلة للإبهام وتأكيد التنكير والشيوع، وكلمة "بعوضة" نكرة مطلقة، بدل من لفظ "مَثَلاً"؛ فقيّدَ إطلاق "مَثَلاً" وقلّل من شيوعه بالبدل وما عطف عليه، "فَمَا فَوْقَهَا"، والفاء عاطفة على بعوضة، و"ما" اسم موصول يعمّ كلّ ما هو فوق البعوضة أي: أكبر منها، وهو الظاهر، ويجوز ما هو دون البعوضة في الصغر انصرافًا عن الظاهر بما يوحيه السياق من المبالغة في ضرب الأمثال بالمستصغرات.

"فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا"، ثمّ قسّم الله تعالى الناسَ حيال ما ضربه مثلًا إلى

---

[97] سورة الأحزاب آية (53)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فريقين:

الأول: فريق المؤمنين: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ"، "الَّذِينَ": موصول يعمّ كلّ مَنْ آمن، وأخبر عن حالهم بالفعل المضارع "يَعْلَمُونَ"؛ ليدلّ على تجدّد علمهم واستمرارهم في العلم بأن ما يقوله الله تعالى هو "الْحَقُّ"، و"أل" في الحقّ للعهد، أي الثابت بالدليل القاطع.

الثاني: فريق الكافرين: "وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا"، فأخبر عن حالهم بالفعل المضارع "يَقُولُونَ"؛ ليدلّ على تجدّد قولهم واستمرارهم في الحرب الإعلامية الثقافيّة الباطلة، ومقولتهم الخبيثة في هذا النصّ: "مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا"، والاستفهام إنكاريٌّ أي: لإنكار الحكمة من ضرب المثل بهذه الأشياء المحتقرة، و"الَّذِينَ": عامّ، "مَاذَا": اسم استفهام من صيغ العموم. فقال ربّنا عزّ وجلّ: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا": فصرّح بالحكمة من ضرب المثل المعترض عليه، وهي الابتلاء به؛ فمن اهتدى فعلى علم، ومن ضلّ فعن فسقٍ عن الحقّ لا عن التباس!

وقد بيّن الله تعالى سبب إضلالهم، فقال: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ"، و"مَا يُضِلُّ": ما: نافية والفعل في سياق النفي للعموم، و"إِلَّا": حاصرة، "الْفَاسِقِينَ": صفة صريحة تعمّ، وكلّ صفة صريحة تومئ إلى العلة، ولفظ "فسق" يدلّ على الخروج من الشيء بعد الدخول فيه، فعُلِمَ بذلك أنهم عرفوا الحقّ ثمّ انصرفوا عنه، ولذا سمّاهم "فاسقين"؛ ليناسب حالهم، ومفهوم المخالفة أنه لا يضلّ غير الفاسقين.

ثمّ وصفهم بما هم عليه من الطباع الخبيثة الحاملة لهم على سلوك هذا المسلك الماكر، فقال الله تعالى: "الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ" "الَّذِينَ": موصول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عـامّ، "عَهْـدَ اللَّهِ": نكـرة مضـافة تعـمّ، "مِيثَاقِـهِ" نكـرة مضـافة تعـمّ كـلّ أنـواع التوثيـق لعهـد الله، "مَـا": اسـم موصـول يعـمّ، و"أَمَـرَ اللَّه": "أَمَـرَ": لفـظ يـدلّ علـى طلـب الفعـل بمادتـه، وهـو للوجـوب لعـدم الصـارف، "أَنْ يُوصَـلَ": المصدر المؤول يعمّ كلّ صلة واجبة، و"الْأَرْضِ": "أل" للعهد.

ظـاهر الـنصّ العمـوم؛ فيشـمل أصـحاب هـذه الأوصـاف في كـلّ عصـر ومصـر، فقـد جمعـوا أصـول الشـرور كلّهـا: نقـضَ عهـد الله، وقطـعَ مـا أمـر الله بوصـله، والفسـادَ في الأرض، وهـذه الخصـال مجتمعـة في كـلّ طائفـة تعـادي الإسـلام مـن المنـافقين، وأهـل الكتـاب، والمشـركين، وإن كانـت بعـض هـذه الخصـال ألصـق بـبعض هـذه الطوائـف؛ ليُشـير تبعًـا لا أصـالة إلى الطوائـف الـثلاث الـتي كانـت تشـكّك في الإسـلام زمـن نـزول القـرآن الكـريم، قـال الإمـام الطـبريّ: "ويحتمـل أن يشـار بـنقض عهـد الله إلى اليهـود؛ لأنهـم نقضـوا العهـد الـذي أخـذ الله علـيهم في الإيمـان بمحمـد صـلى الله عليـه وسـلم، ويشـار بقطـع "مَـآ أَمَـرَ الله بِـهِ أَن يُوصَـلَ" إلى قـريش؛ لأنهـم قطعـوا الأرحـام الـتي بيـنهم وبـين المـؤمنين، ويشـار بالفسـاد في الأرض إلى المنـافقين؛ لأن الفسـاد مـن أفعالهم"[98].

"أُولَئِـكَ هُـمُ الْخَاسِـرُونَ: "الخاسـرون": "أل" لكمـال صـفة الخسـران فـيهم، وتعريـف المبتـدأ والخـبر للحصـر، وضـمير الفصـل لتوكيـد الحصـر، ومفهومه: أن غير أولئك على خلاف ذلك أي: أنهم غير خاسرين.

في الآيتـين التـاليتين عـودة إلى توظيـف حقيقـة الخلـق والـرزق كـدليل دامـغ لعقـول مـن يكفـر بالخـالق المسـتحق للعبـادة، فبـدأ بالأنفـس ثمّ ذكـرَ مـا خلـق

[98] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 27

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الأرض والسماوات.

قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[99].

الاستفهام للإنكار، وفيه تشنيع على من يفعل ذلك، وهو بمعنى النهي عن الوقوع في الكفر، وقد ذكّرهم في هذه الآية بثلاث حقائق جليلة وهي من المسلمات التي لا يرتاب فيها إلا المبطلون.

"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ" بعد قيام الحجة البالغة عليكم، والدليل: "وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا"، سلالة من ماء مهين، "فَأَحْيَاكُم" نفخ فيكم الروح وأنتم في بطون أمهاتكم، "ثُمَّ يُمِيتُكُمْ" بقبض أرواحكم في أجل مسمّى، "ثُمَّ يُحْيِيكُمْ" يوم النشور، "ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" أي تردون في الآخرة إليه، ليحاسبكم، ويجزيكم بأعمالكم. ثمّ أتبع دليل الأنفس بدليل الأرزاق والآفاق:

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[100].

"هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا": "لَكُمْ" لأجلكم، "ما" موصول عامّ، "الأرض" المعروفة المعهودة، "جميعا": لتوكيد العموم، "السَّمَاءِ": المعهودة، "بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم" "كلّ": من صيغ العموم، وهذا النصّ من أدلة الإباحة الأصلية فيما خلق الله تعالى في الأرض، فكلّ ما خلق الله تعالى في الأرض مخلوق من أجل مصلحتنا، وفيه دليل على بطلان الحدود المضروبة

---

[99] سورة البقرة آية (28-29)

[100] سورة البقرة آية (29)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين الناس.

خلاصة المقطع الثاني: أمر الله تعالى الناس بعبادته وحده؛ لأنه الخالق الرازق، ونهاهم عن اتخاذ الأنداد، وذكر الدليل القاطع على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام والرسالة، وهو العجز عن الإتيان بمثل سورة من القرآن، وبين جزاء من اتبع الرسول (الجنّة) وجزاء من أعرض وعاند (النار).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمة مناسبة بديعة وحِكَمٌ رفيعة في ورود هذا الوصل بالأصل الأول أبي البشر جميعًا آدم عليه السلام، وقد ورد بعد الدعوة العامّة، والنداء العامّ للناس أجمعين: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[101]. وفي هذا الموطن من السّورة يتراءى لي سجلُّ أنباءٍ عظيمٌ يمتدّ من حين أنبأ الله تعالى الملائكةَ أنه جاعل في الأرض خليفة مرورًا بخلق آدم عليه السلام، حتى عصرنا هذا؛ حيث أُراني وأهل زماني قائمين على الأرض خلفاءَ أممٍ قد خلت! والحيّ القيوم جلّ وعزّ قائمٌ على كلّ نفس بما كسبت!

في القصّة أفانين من أجلّ المعارف منظومة في سلك بديع مقدّر تقديرًا! فهي قصة جامعة ومؤسِّسة تتجلّى فيها مظاهر الحكمة والفضل في خلق الله تعالى هذا الخليفة، وكلّ مخلوق هو محلّ لظهور الحكمة والفضل، والإنسان هو أوسعها محلّا لجريان الأقدار الشرعية والكونيّة فضلًا وعدلًا! وإني لأشرح لها صدري، وأفتح لها أبواب قلبي، وأبسط إليها يديّ؛ لأغترف وأرتشف وأتزوّد منها أصولًا من فقه المقاصد، والموازنات، والسنن الإلهية. وذلك أن الإنسان وعاء عبادات متنوّعة ووعاء افتقار كونيّ واسع! والتوسيع والتنويع يظهر فيهما من أنواع الحكمة والرحمة والعلم واللطف والقوة والقدرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى! فهلمّ نقفْ مليًّا بين يدي هذه الآية؛ لنجدّد عزمنا على القيام بفريضة الخلافة حمدًا وشكرًا لله تعالى على نعمة الاصطفاء.

---

[101] سورة البقرة آية (21)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[102].

أودّ أن أبثّكم بعض ما يدور في قلبي من المعاني قبل الشروع بتفسير الآية، ومن ذلك:

- أن الله تعالى عليم حكيم لا يخلق شيئًا عبثًا، ومن حكمته في جعل الخليفة في الأرض الابتلاءُ وما يترتّب على الابتلاء من الجزاء.

- أن إنشاء أمّة جديدة تعبد الله تعالى اختيارًا مصلحة راجحة.

- أن هذه الحفاوة الربّانية بهذا الخليفة ترفع الإنسان مقامًا عليًّا؛ مقام الإمامة والهداية، وهو مقام لا يمكن أن يسلبه منّا أحدٌ إلا إن فرّطنا فيه وتخلينا عن وظائفه! وثمّة حرب ضروس؛ لتنفير الناس عن المصلحين في الأرض، وطمس معالم هذا المقام العليّ بنبز أهله بأقبح النعوت؛ لنبذهم! ولكن هيهات هيهات لما يمكرون! ومن ذا يحجب أو يهمّش الوارثَ الشرعيّ ورثةَ الرسل عليهم السلام؟ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[103].

- أن الملائكة قد قدّرت الأمر بميزان المصالح والمفاسد، وهو ميزان معتبر شرعًا وعقلًا، ومبناه على رعاية الحكمة، ولكنّ صحة الوزن بهذا الميزان ترجع إلى ما نضعه في كِفّتيه! وكان مبلغَ علم الملائكة ما ذكرته من المصالح (التسبيح والحمد والتقديس)، والمفاسد (الفساد في الأرض وسفك الدماء)، ولكنّهم قابلوا بهذا الرأي النصّ الصريح من ربّ العالمين، وهذا الاجتهاد

---

[102] سورة البقرة آية (30)

[103] سورة الأنبياء آية (105)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فاسد الاعتبار؛ لأن الله تعالى هو أعلم بمصلحة الخلق.

- أن استمرار الملائكة في التسبيح والحمد والتقديس مصلحة لا تَعارُضَ بينها وبين جعل الخليفة في الأرض.

- أن كشف ما كان يبطنه إبليس ويكنُّه من الكبر والفساد مصلحة عظيمة، وقد جعل الله تعالى وجود آدم فتنة وابتلاء لإبليس الذي كان يظهر الصلاح، ولم يكن الملائكة يتوقعون أن رأس الفساد (إبليس) مخبوء بينهم.

- أن وجود شيء من الشرّ في صحبة الخير مغتفر، إذا كان وجود ذلك الشرّ سببًا لحصول مصلحة أعظم.

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً": "رَبُّكَ" إضافة اسم الله تعالى إلى ضمير المخاطب فيه تشريف وأيّ تشريف من ذي الجلال والإكرام لعبده ورسوله عليه الصلاة والسلام؛ لأن سياق الآيات سياق امتنان، وإحسان، وتكريم، وتعظيم، والرسول عليه الصلاة والسلام هو أحسن العباد تلقّيًا، فاختصّه الله تعالى بالخطاب تقريبًا وترغيبًا!

"لِلْمَلَائِكَةِ": "أل" للعموم، و"الْأَرْضِ" "أل" للعهد، الأرض المفطورة وفق فطرة الإنسان الكونيّة ووظيفته الشرعيّة. "خَلِيفَةً" في الأصل صفة بمعنى اسم الفاعل أي يخلف بعضُهم بعضًا، أو بمعنى اسم المفعول أي يخلفه غيرُه، ويجوز أن يُجرى مجرى الجوامد[104]، ويقصد به جنس البشر، فالبشر جميعًا متساوون في أصل الخلقة والخلافة في الأرض أينما كانوا، وكيف كانوا ضعفاء أو أقوياء، فقراء أو أغنياء! ليس لأحدٍ أن يبغي على

---

104 انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج253/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحد!

" قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"، و"مَنْ": اسم موصول يعمّ، و"الدِّمَاءَ": عامّ، عمومه عرفيّ أي التي حرّم الله تعالى سفكها.

"وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ": الواو للحال، و"بحمدك" متعلق بمحذوف؛ لأنه حال، والباء فيه للمصاحبة أي نُسَبِّح ملتبسين بحمدك. و"بِحَمْدِكَ" نكرة مضافة تعمّ، "وَنُقَدِّسُ لَكَ": فعل قَدّس متعدٍّ بنفسه، واللام للتقوية أي ننزهك ونعظمك، ويحتمل: نقدِّس أنفسنا، ونطهِّرها لك.

فقال الله تعالى: "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، و"مَا لَا تَعْلَمُونَ": "ما" موصولة تعمّ، والفعل في سياق النفي يعمّ. فبيّن لهم أنه يعلم من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا يعلمون.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[105].

في هذه الآيات بيان الفضل الربّاني العظيم بتعليم آدم الأسماء كلّها، وهو مسبوقٌ بكرامة خلق الله تعالى آدمَ بيديه، ونفخه فيه من روحه، وقال

[105] سورة البقرة آية (31-33)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابـن كثـير: "هـذا كـان بعـد سـجودهم لـه، وإنمـا قـدّم هـذا الفضـل علـى ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة" [106].

وفي قول الله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" أمور:

الأول: المعلِّـم، وهـو الله تعـالى، وتعليمـه أحسـن التعلـيم وأنفعـه، وأرفعـه بمنّـه وكرمـه وفضـله مـن غـير معالجـة مـن آدم ولا معـاناة، فهـو عِلـمٌ مـن لـدن العلـيم الحكـيم، ومـا بنـا مـن الخـير مـن مـيراث تلـك النعمـة نعمـة تعلـيم آدم الأسمـاء كلّهـا لا يحصـيه إلا الله تعـالى، والإحسـان يوجـب الشُّـكران، وكفـران نعـم الله تعالى، ونكران جميله الذي لا حدّ له من أقبح القبائح وأخبث الرذائل.

الثـاني: المعلَّـم، وهـو "آدم" عليـه السـلام، والله أعلـم حيـث يجعـل فضـله، وقـد ادّخـر الله لـه هـذا العلـم الجليـل دون سـائر خلقـه مـن الملائكـة وغـيرهم؛ لأنـه الخليفـة الـذي يحتـاج إلى مَيـز الخبيـث مـن الطيـب، والضـارّ مـن النـافع؛ حـتى ينتفـع بمـا وضـع لـه في الأرض، ويجلـب مصـالحه بيسـر مـن غـير حـرج، فـآدم مخلـوق ذو احتياجـات كثـيرة: ضـرورية، وحاجيـة، وتحسـينيّة، فـلا بـدّ لـه مـن أن يستهلك وأن ينتج؛ ليحيا حياة طيّبة.

الثالـث: العلـوم: "الْأَسْمَـاءَ كُلَّهَـا": "أل" للاسـتغراق فهـو عـامّ مؤكّـد، يعـمّ أسمـاء الأشـياء المخلوقـة في الأرض، فعلّمـه الله تعـالى أسمـاء الأشـياء وحقائقهـا؛ حـتى إذا هـبط مـن الجنّـة كـان قـادرًا علـى سـدّ حاجاتـه. وقـد بـدأ الله الحكـيم الخبـير تعلـيمَ آدم علـمَ أسمـاء الأشـياء؛ لأنـه آلـة فهـم العلـوم الكونيّـة والشـرعية، وأصـل علوم الخلافة في الأرض.

ولـذا نجـد الأمـم الناهضـة تـترجم العلـوم إلى لسـانها؛ حـتى تسـتقل بقرارهـا ومسـارها. وعليـه فالحفـاظ علـى لسـان العـرب، واسـتيعاب العلـوم

---

[106] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج222/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشـرعية والكونيـة بـه مـن أسـس حفـظ السـيادة، واسـتئناف الـريادة. ونار الحـرب علـى لسـان العـرب تلظّـى في كـلّ بـلاد العـرب ناهيـك عـن غيرهـا، والحديث عنها ذو شجون!

و"الْمَلَائِكَـةِ": "أل" للاسـتغراق فهـو عـامّ، "أَنْبِئُـونِي" الأمـر للتعجيـز، وكـلّ فعـل الأمـر يـدلّ علـى الإطـلاق، وكـلّ متعلقاتـه قيـدٌ لـه، "بِأَسْمَـاءِ هَـؤُلَاءِ": أسمـاء: نكـرة مضـافة إلى معرفـة تعـمّ، "إِنْ كُنْـتُمْ صَـادِقِينَ" في دعـواكم في شـأن الخليفة، فأنبئوني.

"قَـالُوا سُـبْحَانَكَ"! مـا أجلّهـا مـن كلمـة تقـديس وتنزيـه! ومـا أحسـن هـذه الاسـتكانة والإنابـة بـين يـديّ العلـيّ العظـيم! "سُـبْحَانَكَ" نكـرة مضـافة إلى معرفـة تعـمّ كـلّ تنزيـه، وسـبحان مفعـول مطلـق ومعنـاه: التنزيـه لله تعـالى، "لَا عِلْـمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا" "علـم": اسـم لا النافيـة للجـنس، فهـو نـصّ في العمـوم، "إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا" الاسـتثناء مخصِّـص متصـلٌ، و"مـا" موصـول يعـمّ، وفي هـذا القـول إظهـار للافتقـار، واعـتراف بالنعمـة، ونسـبة الفضـل إلى صـاحبه، "إِنَّـكَ أَنْـتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"، هـذا ثنـاء لله تعـالى بمـا هـو أهلـه، وتعريـفُ مـا كـان أصـله المبتـدأ والخـبر للحصـر، و"أَنْـتَ" ضـمير فصـل مؤكّـد للحصـر، و"أل" في "الْعَلِـيمُ الْحَكِـيمُ" للكمـال، وصـيغة فعيـل للمبالغـة التامّـة، وهـي في حـقّ الله تعالى على حقيقتها؛ لأن الله تعالى قد أحاط بكلّ شيء علمًا وحكمة.

و"أَنْبِـئْهُمْ" أمـر، و"أَسْمَـائِهِمْ": نكـرة مضـافة إلى معرفـة تعـمّ، "غَيْـبَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" "غيـب": نكـرة مضـافة تعـمّ كـل مغيّـب في السـماوات والأرض، و"أل" في السـماوات للاسـتغراق، و"أل" في الأرض للعهـد أي الأرض المعهـودة، "مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنْـتُمْ تَكْتُمُـونَ" "مـا": موصـولة تعـمّ كـلّ شيء يبدونه أو يكتمونه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهنا يثور سؤال: لماذا توسّع القرآن الكريم في ذكر هذه الحادثة، والملائكة إنما قالوا: ما قالوا تعظيمًا لله تعالى وتنزيهًا له؟ والجواب أن في ذلك فوائد، منها:

الأول: إظهار حكمة الله تعالى في اختصاص آدم عليه السلام بالخلافة.

والثاني: إبانة شرف آدم عليه السلام، وقدرته على تحمّل العلم الذي اختصّه الله تعالى به؛ ليكون أهلًا؛ للقيام بأمر الخلافة في الأرض.

والثالث: تذكير ذريّة آدم عليه السلام بعظيم فضل الله تعالى عليهم؛ لنشكره، ونثني عليه بما هو أهله.

والرابع: تعليم الناس أدب تلقّي كلام الله تعالى العليم الحكيم بالتسليم والتعظيم، والحذر من التقدّم بين يديه بمعارضة ما فيه نصٌّ صريح بالعقل القاصر.

الخامس: لطف الله تعالى ورفقه بالمخطئ الناصح و"اعتناؤه بشأن الملائكة، وإحسانه بهم بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه"[107].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[108].

لقد اختار الله تعالى "السّجود"؛ ليكون تحية وتوقيرًا لآدم عليه السلام؛ لما يترتّب عليه من حكمة؛ فقد ضيّق هذا الابتلاء الخناق على نفس إبليس، وأفقده القدرة على استدامة الاستقامة، وحفظِ ما اكتسبه من

---

[107] السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مرجع سابق، ص48

[108] سورة البقرة آية (34)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقام الصلاح والقربى؛ فأساء تلقّي أمر الله تعالى، وحمله على غير وجهه؛ بسبب الاستكبار والجهل والحسد، فأسقط حقّ الله في وجوب الامتثال لأمره، والخضوع له، والطاعة، بدعوى "أنا خير منه"!

وبدا ما كان يخفيه إبليس، وانفجر بركان سخطه في بحر ظلمات حسده، فإذا طوفان شروره يمتدّ؛ ليغرق ما حوله، والحِمم تشوي مَن بلغتَه، والدخان يُعمي من أحاط بهم.

انقلب إبليس على عقبيه، ويا لَهولُ المنقلَب! لقد آثر اتباع هواه، وسنّ سنّة سيئة لمن كان على شاكلته.

وإنها لفاجعةٌ وأيّ فاجعة تحلّ بالملائكة حين ينقلب رفيقهم وصديقهم (إبليس) عدوًّا لربّ العالمين! لقد كان إمام المفسدين في الأرض، وسفَّاكي الدماء مستورًا بينهم مغمورًا في بحار الطاعة! وإن وجود آدم عليه السلام كان سببًا في كشف إمام المفسدين والمجرمين إبليس، وهذه مصلحة عظيمة لم تخطر على بال الملائكة.

وها هي الأرض مثقلة بآثار فسقه وفساده! وقد طال شرّه ومكره قلوب العباد إلا من رحم ربي. والواجب على كلّ مؤمن أن يوقن أن ما شرعه الله تعالى لعباده هو الأقوم والأحسن في جلب المصالح ودرء المفاسد، ومن أعظمِ مصالح الابتلاء مَيزُ الخبيث من الطيب.

وسوف أقسم الآية إلى ثلاثة أجزاء:

الأول: قوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ"

قوله تعالى: "وَإِذْ": "الواو": عاطفةٌ لقوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا" على قوله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"[109]، وعليه فلا ترتيب بين الأمر بالسجود وتعليم آدم. و"إذ" ظرفُ زمانٍ ماضٍ[110]، وقد أعيد ذكر "إذ" مع أن العطف يغني عنه؛ للتنبيه على أهميّة هذه الجملة؛ لأنها تؤسّس لمعنى مستقلّ، وهذا المعنى يقوّي إرادة فصل الأمر بالسجود عن نعمة "تعليم آدم"، بخلاف ما ذهب إليه بعض المفسرين من ترتيب السجود على التعليم[111].

وقد قُدّم ذكرُ التعليم؛ لأنه مناسب للسّباق (السّباق: ما سبق ذكره قبل آية الأمر بالسجود)، وأخّرت آية السجود عن آية التعليم؛ لأن تأخيرها موافق للحاق (اللّحاق: ما جاء ذكره بعد آية السجود)، وبهذا يتضح أن كلًّا من التعليم والسجود أصل مستقل، له مقاصده، وليس السجود مترتّبًا على فضيلة العلم، بل هو سابق الوقوع.

قوله تعالى: "قُلْنَا":

-القائل: أسند فعل القول إلى ضمير المتكلم المعظّم نفسَه -عزّ وجلّ- الذي له الخلق والأمر، وهذا مقام عظيم لا منتهى لجلاله وسلطانه.

-المقول له: "لِلْمَلَائِكَةِ": "أل" للاستغراق، فاللفظ يعمّ الملائكة أجمعين، وإبليس تبعًا.

- زمن القول: هو الزمن الماضي حين أخبر الله تعالى الملائكةَ أنه "خَالِقٌ بَشَرًا": وقد بيّن الله تعالى ذلك في موضعين:

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

---

109 انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 501

110 انظر: السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج247/1

111 انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج420/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سَاجِدِينَ﴾[112].

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[113]، وقد تبيّن من ظاهر هذين النصين أن الأمر بالسجود كان قبل تعليم آدم الأسماء كلّها، وفائدة ذكره قبل خلق آدم بزمن طويل الابتلاءُ والتمحيص بالإملاء، فإن إبليس كان في صفّ الملائكة باذلًا نفسه للطاعة، وقد علم هذا النبأ نبأ السجود لآدم، فابتلي به وأملى الله تعالى له؛ ليختار ما شاء على مهل ورويّة؛ ولم يؤخذ ضُغْطة، ولم يَظهر منه ما يؤخذ به طوال تلك الفترة.

- مقول القول: هو قوله تعالى: "اسْجُدُوا لِآدَمَ"، وفيه دلالات:

الأولى: الآمر بالسجود هو الله ذو الجلال والإكرام، والأمر للوجوب.

الثانية: السجود: قال ابن فارس: "أصلٌ واحدٌ مطّرد يدلّ على تطامُن وذلّ"[114] وقال بعضهم:"حقيقته طأطأة الجسد أو إيقاعه على الأرض بقصد التعظيم لمشاهَدٍ بالعِيان"[115]، وفي قصره على المشاهد بالعيان إخراج لأعظم من سجد له العباد على الحقيقة!

الثالثة: والمأمورون بالسجود هم الملائكة كلّهم، وإبليس.

الرابعة: والمسجود له آدم عليه السلام.

الخامسة: مقاصد الأمر بالسجود، منها:

- إظهار الخضوع والطاعة المطلقة لأمر الله تعالى.
- إبانة شرف آدم وفضله.

---

[112] سورة الحجر الآيتان (28-29)

[113] . سورة ص الآيتان (71-72)

[114] انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج133/3

[115] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج421/1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ابتلاء إبليس وكشف ما في نفسه من الاستكبار والفسق.

- ابتلاء آدم وذريّته بنعمة التكريم وما ترتّب عليها من حسد إبليس وعداوته؛ فمن شكر الله تعالى، وصبر وصابر، فاز وأفلح، ومن كفر، واتبع خطوات الشيطان، هلك وخسر.

- إظهار فضل الملائكة في حسن الطاعة والامتثال؛ ليتأسى بهم العباد.

الثاني: قوله تعالى: " فَسَجَدُوا":

"فَسَجَدُوا": الفاء للترتيب والتعقيب.

زمن السجود: بيّنه الله تعالى في قوله: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"، الفاء في قوله تعالى: "فَقَعُوا" واقعة في جواب الشرط "إذا"، وتفيد التعقيب، فكان سجودهم فور تسوية آدم ونفخ الروح فيه، وهذا ظاهر، وقد ذهب إلى هذا القول جمع من المفسرين، قال الإمام الطبريّ: "سجود الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح"[116].

الساجدون: دلّ عليهم الضمير، وهو عائد على معهود عامّ، وهم الملائكة. فترى صفوف الملائكة مدّ البصر ساجدة لعبدٍ من العباد امتثالًا لأمر الله تعالى!

الثالث: قوله تعالى: "إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ":

"إِلَّا": أداة استثناء، فإن قلنا: إن الاستثناء متصل فهو للتخصيص من عموم الملائكة، وإن قلنا هو منقطع، فليس بمخصّص، فسجد الملائكة الكرام، وظلّ إبليس واقفًا شاخصًا مستكبرًا! وقد بيّنت الآيات في مواطن أخرى كيف أبى، واستكبر، وكفر، ورفع لواء الباطل، وأعلن الحرب على آدم

---

[116] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 512، وانظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج427/2

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذريّته، وشقّ عصا الطاعة إلى قيام الساعة، فأهلك نفسه ومَن معه من الكافرين.

و"الْكَافِرِينَ": صفة صريحة تعمّ، والصفة الصريحة تومئ إلى العلة، وفي ذكر عموم الكافرين تعريض وذمّ لكلّ من كفر من بني آدم، واتبع عدوّه، ونبذ مسلك أبيه المعظّم، وسلفه الصالح المكرّم.

أعاذنا الله تعالى والمسلمين من الفتن، ربّنا رحمتك ولطفك! ما قدرناك حقّ قدرك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[117].

توالت النّعم على آدم عليه السلام: فقد اصطفاه الله لخلافة الأرض، وخلقه بيديّه، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وكشف عدوّه، وعلّمه الأسماء كلّها، وخلق له زوجًا؛ ليسكن إليها، وفي هذه الآية يذكر الله تعالى نعمًا جميلة من نعمه الجليلة على آدم عليه السلام.

قال الله تعالى: "وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ":

"وَقُلْنَا": القائل ربّ العزّة العليّ العظيم، والمخاطَب آدم العبد المجتبى، ومقول القول: بقيّة الآية الكريمة، والمقاصد كثيرة، منها: التكريم والتنعيم في الجنّة إلى حين؛ حتى يتهيأ ويستعدّ لتحمّل أعباء الخلافة في الأرض.

"اسْكُنْ" استقرّ، والآمر: هو الله تعالى مالك الملك، والمأمور آدم وزوجه، والأمر بالسكن للامتنان والتكريم، و"الْجَنَّةَ": "أل" للعهد، أي الجنّة التي وصفها لنا، وهي دار الخلد، ويجوز أن تكون "أل" للعموم؛ لأن الجنة تشتمل على جنات كثيرة، وإطلاق الإذن بالسكنى فيه دلالة على انفرادهما بنعيم الجنّة، وأنه لا شريك لهما فيها ولا مزاحم، قال الطبريّ: "وفي هذه الآية دلالة واضحة على صحة قول من قال: إن إبليس أخرج من الجنة بعد الاستكبار عن السجود لآدم، وأُسكنَها آدمُ قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض. ألا تسمعون الله جل ثناؤه يقول: "وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رَغدًا حيثُ شئتما ولا تَقربا هذه الشجرةَ فتكونا منَ الظالمين فأزلهما الشيطانُ عنها فأخرَجهما مما كانا فيه". فقد تبيّن أن إبليس إنما أزلهما عن طاعة الله بعد أن لُعِن وأظهرَ التكبّر؛ لأن سجود

---

[117] سورة البقرة آية (35)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملائكة لآدم كان بعد أن نُفخ فيه الروح، وحينئذ كان امتناع إبليس من السجود له، وعند الامتناع من ذلك حلَّت عليه اللعنة"[118].

"وَكُلَا": أمر للإباحة والامتنان، "رَغَدًا" زيادة في الامتنان، والرَّغَد: "الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يُعنِّي صاحبَه"[119]، و"حَيْثُ ": ظرف عامّ، وفي هذا التعميم توسيع وتكريم.

قوله تعالى: "وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"، "لَا تَقْرَبَا": النهي لتحريم القربان، والملابسة من باب أولى، والفعل في سياق النهي يعمّ كلّ أنواع القُرْب، والمفعول به: "هَذِهِ الشَّجَرَةَ"، يفيد قَصر النهي على قرب الشجرة المعيّنة المشار إليها، وفي قصرِ النهي على قرب شجرة واحدة فقط من بين ما لا يحصى من الشجر. وللاقتصاد في التكليف مقاصد، منها:

الأول: التخفيف: فلم يأمره الله بفعل شيء من الطاعات وهو في الجنّة، بل قصر التكليف على "الترك"، وهو أخفّ وأيسر من الفعل؛ حتى لا يبقى بالُه مشغولًا بأداء الواجبات والحذر من المحظورات، وليتمكّن آدم وزوجه من التمتّع، والتنعُّم بلا حرج.

الثاني: قطعُ سبل الغواية؛ حتى يكاد يقول القائل: أنى لإبليس أن يجد إلى آدم سبيلًا؟

الثالث: إعنات الشيطان: فيشقى في محاولات الإضلال والإشقاء.

"فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ": فاء السببية واقعة في جواب الطلب؛ للإيماء والتنبيه على علّة النهي وهي الصيرورة من الظالمين، والصفة الصريحة: "الظَّالِمِينَ"

---

[118] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 512.

[119] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 515.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعـمّ، وهـذا تحـذير شـديد ووعيـد؛ لأن الالتحـاق بزمـرة الظـالمين يوقـع فيمـا يستحقونه من العقوبات.

ومـع أن التخفيـف كـاد يُخفـي التكليـف! فقـد اسـتدرج الشـيطانُ آدم وزوجـه؛ حـتى ظلمـا أنفسـهما. وعليـه فـلا تجـوز الغفلـة عـن كيـد الشـيطان، بـل يجـب الحذر الدائم من خطواته!

قـال الله تعـالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَـا الشَّـيْطَانُ عَنْهَـا فَأَخْرَجَهُمَـا مِمَّـا كَـانَا فِيـهِ وَقُلْنَـا اهْبِطُـوا بَعْضُـكُمْ لِـبَعْضٍ عَـدُوٌّ وَلَكُـمْ فِي الْأَرْضِ مُسْـتَقَرٌّ وَمَتَـاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[120].

إنّهـا سـنّةُ الأخـذ بالـذنب أحاطـت بإبلـيس فأخرجتـه مـن الجنّـة، وأوردتـه المهالـك، وهـا هـي تطـال أبانا آدم عليـه السـلام وزوجـه، وتخرجهمـا مـن الجنّـة؛ لمخالفتهما أمر الله تعالى، واتباعهما خطوات الشيطان.

ويا لَهَـول الفاجعـة، ووُحشـة الفـراق! ومـا لي مـن قـدرة علـى وصـف الأسـى والحسـرة الـتي حاقـت بآدم وزوجـه! ولكـنّي أُمثِّـل بمـا وجـدناه مـن ألم فـراق المسـاكن والأوطـان؛ فقـد أصـابنا مـن الهـمّ والغـمّ مـا لا يعلمـه إلا الله تعـالى! مـع أنّ بعضـنا قـد انتقـل إلى بـلاد أكثـر زخرفًـا وزينـة! فكيـف بمفـارق الجنة إلى الأرض؟

"فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا"

"فأزلَّهما":

أزلّ: الإزلال: الإيقـاع في الزلـل وهـو الخطيئـة، قـال الإمـام الطـبري: "بتشـديد الـلام، بمعـنى: اسـتزلَّهما، مـن قولـك زلَّ الرجـل في دينـه: إذا هفـا فيـه

---

[120] سورة البقرة آية (36)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأخطـأ"[121]. وفي المحسوسـات يقـال: زلّـت القـدمُ إذا زلقـت، وزالـت عـن مكان ثبوتها، قال الله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾[122].

المُـزِلّ (الفاعـل): الشـيطان، و"أل": للعهـد، أي: إبلـيس، وأسـند الفعـل للشـيطان؛ لأنـه تسـبّب فيـه، وإن كـان المباشـر للزلـل آدم وزوجُـه، وظـاهر النصّ يدلّ على أن الزلل لم يكن ليحصل لولا إبليس.

المُزَلّ: آدم وزوجُه؛ لوقوعهما في المعصية بالأكلّ من الشجرة المحظورة.

المـزَلّ عنـه: الشـجرة، "فَأَزَلَّهُمَـا الشَّـيْطَانُ عَنْهَـا": "عـن" في هـذا الـنصّ للتسـبُّب[123]، والضـمير "هـا" عائـد علـى الشـجرة، أي: أوقعهمـا في الزلـل والخطيئـة بسـبب الشـجرة، ولم تبـيّن هـذه الآيـة كيـف أزلّهمـا؟ وقـد بيّنـه الله تعـالى في مـواطن أخـرى، منهـا قولـه تعـالى: ﴿فَوَسْـوَسَ لَهُمَـا الشَّـيْطَانُ لِيُبْـدِيَ لَهُمَـا مَـا وُورِيَ عَنْهُمَـا مِـنْ سَـوْآتِهِمَا وَقَـالَ مَـا نَهَاكُمَـا رَبُّكُمَـا عَـنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُـونَا مَلَكَـيْنِ أَوْ تَكُـونَا مِـنَ الْخَالِـدِينَ * وَقَاسَمَهُمَـا إِنِّي لَكُمَـا لَمِـنَ النَّاصِـحِينَ * فَـدَلَّاهُمَا بِغُـرُورٍ فَلَمَّـا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُمَـا سَـوْآتُهُمَا وَطَفِقَـا يَخْصِـفَانِ عَلَيْهِمَـا مِـنْ وَرَقِ الْجَنَّـةِ وَنَادَاهُمَـا رَبُّهُمَـا أَلَمْ أَنْهَكُمَـا عَـنْ تِلْكُمَـا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[124].

وفي هـذا بيـان أن الشـيطان يتوسّـل بالأسـباب، ويتفـنّن في صـناعة الفـتن مـن الشـبهات والشـهوات؛ فيصـوّر الأشـياء علـى غـير حقيقتهـا، ويسـمّيها بغـير أسمائها، ويعلّلها بما يُغري؛ ليُستجاب لوسوسته، فيُغوي، ويُردي.

---

[121] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ج1/ 515.

[122] سورة البقرة آية (36)

[123] انظر: أبا حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ج1/ 262

[124] سورة الأعراف الآيات (20-22)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نتيجة الإزلال: "فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ" الفاء للسببيّة، فكان الإخراجُ عاقبةَ الزلل، و"مِمَّا كَانَا فِيهِ" "مِنْ" لابتداء الغاية، و"ما": موصول يعمّ كلّ نِعَم الجنّة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[125]، والأفعال في سياق النفي للعموم، فلا جوع فيها البتة، ولا عري، ولا ظمأ، ولا ضحو، ومن مقاصد إيرادها بالنفي أمور، منها:

الأول: التأمين والتطمين من منغِّصات التنعّم، والتبشير بفِرَةِ النّعم وكثرتها من المطعومات والمشروبات والملبوسات والمساكن والظلال، ولم يذكر الشّبع والرِّيّ؛ لأن الشّبع والرِّي المعروفين من موانع الاستمرار في التلذّذ بالمطعومات والمشروبات، والجنّة ليست بدار اقتصاد، وتقشُّف، وكفاف، بل دار نعيم غير مجذوذ، ومدار التنعُّم فيها على توسيع الشهية وتكثير الشهوات؛ ليتمتّع أهلها، ويتلذّذون فيها بلا حدّ مانع، ولا عدّ قاطع.

الثاني: التحذير والترهيب من فوات هذا النعيم بذكر الجوع والعري والظمأ والضحو، قال الزمخشريّ: "ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشِّقوة التي حذره منها؛ حتى يتحامى السبب الموقع فيها، كراهة لها"[126].

"وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" "اهْبِطُوا": الأمر كونيّ، والهُبُوط بضمّ الهاء: النزول، والفاعل واو الجماعة تعمّ: آدم، وزوجه، وإبليس،

---

[125] سورة طه الآيتان (118-119)

[126] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، مرجع سابق، ج92/3

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ"، "بَعْضُكُمْ" بعض: نكرة مضافة إلى معرفة تشمل كلّ واحد منهم ومن ذريتهم، "لِبَعْضٍ" مطلق، وفيه دلالة على أن العداوة مستمرة غير منقطعة. وما أوحش الهبوط من درجات الهداية، وما أشدّ السقوط في دَرَكات الغواية! ولا يزال الشيطان يُزلّ بني آدم ويفتنهم، ويخرجهم من النور إلى الظلمات، ومن النعيم إلى الشقاء، وما زال أكثر الناس يُصرّون على اتباع خطوات الشيطان، وورود موارد الحرمان والخسران، وقد خلت من قبلهم المثُلات!

"وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ"، "وَلَكُمْ" تقديمه يفيد الحصر، ومفهومه: لكم لا لغيركم، "فِي الْأَرْضِ": تقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر، ومفهومه: في الأرض لا في سواها، و"الأرض": "أل": للعهد، أي: الأرض المعروفة، وعليه فلا مستقرّ للإنسان إلا في الأرض وليس لهم في غيرها من الكواكب مستقرٌّ ولا متاع! و"مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ": التنكير فيهما للتقليل، وهو ما يدلّ عليه شبه الجملة: "إِلَى حِينٍ"، وتنكير "حين" للإبهام.

قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[127].

إنها آية التوبة الأولى التي تبيّن فضل الله تعالى على آدم عليه السلام بتوفيقه إلى التوبة؛ لتكون مسكَ الختام في ذلك المقام الرفيع في الجنة، ولينزل إلى

---

[127] سورة البقرة آية (37)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرض طاهرًا مطهرًا مجتبى مهديًّا، وقد تزوّد بعلم التوبة وعَمِل به؛ ليكون زاده وزاد ذريّته على الأرض التي لا تستقيم الحياة عليها ولا تطيب إلا بالتوبة!

لقد كانت القلوب واجفة، والأبصار خاشعة، والأيدي راجفة! ماذا يقول المذنب؟ وكيف عساه يستعتب؟ ولما رأى ربّنا ما بآدم من صدق النّدم، وعظيم الاستكانة! أدركه بلطفه، وأدلى إليه حبل عفوه، وألقى إليه ما ألقى! فكانت التوبة! وما أدراك ما التوبة؟ إنها سفينة العودة والأوبة إلى الجنّة! وهي منّة ربانية وأيّ منّة! لا يقدرها حقّ قدرها إلا من وفّقه الله تعالى.

عند عتبة هذا الباب المقدّس حطّ المذنب رحاله، وخلع نعاله، وأقبل على ذي العزّة والعظمة والجلالة، فخرّ ساجدًا منيبًا بين يدي ربه التّواب الرحيم.

"فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ".

التلقّي: يدلّ على الاعتناء والحفاوة بما يُتلقّى، والمتلقّي: هو العبد النادم آدم عليه السلام، **والمتلقَّى منه:** ربّه سبحانه وتعالى، لأن الله تعالى وحده التوّاب الرحيم، **والمتلقَّى:** "كَلِمَات": ولفظها مطلق مراد به معيّن، ويجوز أن يكون التنكير للتعظيم، والكلمات التي تلقاهنّ آدمُ من ربّه ما دلّ عليها القرآن[128] بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[129]، وهذه الكلمات أصول في علم التوبة.

"فَتَابَ عَلَيْهِ": الفاء للترتيب والتعقيب، فما أسرع الإنابة! وما أجلّ

---

[128] انظر: الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج1/ 546

[129] سورة الأعراف آية (23)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإجابة! وما أعجل البشرى! وباب التوبة من أنفع وأوسع وألطف أبواب رحمة الله تعالى! وإنما الرسُل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم الكرام هداة دعاة إلى باب التوبة، فيختصّ الله تعالى بالدخول من يشاء من عباده!

"إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" للتعليل! لأنه تواب كثير التوبة على العباد، رحيمٌ وسعت رحمته كلّ شيء، فإن توبته على آدم عليه السلام محضُ فضل! وفضلٌ محض! ترتّب عليه نجاة أمم لا تعدّ!

لقد اختار آدم وزوجه التوبة، وهي سبيل استدامة الحبّ، والقرب، والرفعة، فنجا، وسعد، واختار إبليس طريق الفسوق والكفران، فشقيَ وأشقى من اتبعه! من هجر باب التوبة هلك!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[130].

في هذا الخطاب من المواساة والبشرى لآدم وزوجه ما يُزيل الأسى، ويملأ النفس فرحًا واستبشارًا، وأما إبليس الذي انتفخ صدره تشفّيًا وشماتة بغوايته آدم وزجه وإخراجهما من الجنّة، فلا يزيده هذا الخطاب إلا كمدًا وحسرة!

و"الهدى" هو منهاج الخلافة الراشدة في الأرض، وزادُ العودة إلى جنّة الخلد! والانتفاعُ به قائم على أصلٍ واحد هو "الاتباع"، واتباع الهدى لا يتمّ إلا بأن نتخذه إمامًا، فلا نقدّم عليه عقلًا، ولا عرفًا، ولا ثقافة موروثة أو مستوردة أو مختلقة.

"قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا" "اهْبِطُوا": أمر كونيّ، والضمير عامّ يشمل آدم وزوجه، وإبليس، وتدخل الذريّة تبعًا، وعليه فالخطاب الوارد في الآية يتناولهم جميعًا، وقد أكّد هذا العموم بلفظ "جَمِيعًا".

. و"مِنْهَا" من لابتداء الغاية، والضمير عائد على الجنّة، ومن مقاصد تَكرار الأمر بالهبوط بيان أن التوبة المذكورة بعد الأمر بالهبوط الأول لم تمنع من حلول القَدَر المترتّب على الأكل من الشجرة، وإن كانت التوبة مقبولة رافعة للذنب، وفي هذا تحذير شديد للعباد من مخالفة سنن الله تعالى؛ فإن المؤاخذة العاجلة على بعض الذنوب لا تردّ ولا تدفع، ويعفو الله تعالى عن كثير.

"فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ".

---

130 سورة البقرة آية (38-39)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشـواق العـودة إلى الجنـة تمـور مـورًا، والطمـع في رحمـة الله تعـالى يمـلأ قلـوب المـؤمنين، فهـل إلى رجـوعٍ مـن سـبيل؟ فتتـدلّى أمـزان البشـرى مـن قريـب علـى القلـوب الملهوفـة، ومـا أطيـب وقعهـا! فتجـيء البشـرى بأسـلوب الشـرط: "فَإِمَّـا يَأْتِيَـنَّكُمْ مِـنِّي هُـدًى" "فَإِمَّـا" الفـاء للترتيـب والتعقيـب، و"إِمَّـا": "أصـلُها: إن الشـرطيةُ زِيـدَتْ عليهـا مـا تأكيـدًا"[131]، وقـال ابـن عاشـور: "والإتيـانُ بحَـرف الشـرط "إن" الـدالّ علـى عـدم الجـزم بوقـوع الشـرط إيـذان ببقيـة مـن عتـاب علـى عـدم امتثـال الهـدى الأول"[132]، وأقـول: هـذا المعـنى الـذي ذهـب إليـه لا يستسـيغه المقـام والسـياق، فـإن الله تعـالى خـتم الآيـة السـابقة بقولـه: "إِنَّـهُ هُـوَ التَّـوَّابُ الـرَّحِيمُ"، وإسـباغ لبـاس التوبـة علـى آدم وزوجـه، والاجتبـاء والهدايـة والرحمـة واللطـف ينـافي مـا ذهـب إليـه، وكـذلك ظـاهر اللفـظ فـإنّ "إمـا" وإن كانـت مركبـة مـن "إن" و"مـا"، فإنّهـا بعـد التركيـب أقـوى وآكـد في الدلالـة مـن "إنْ" المجـردة، والفعـل يأتي بعـدها مؤكّـدًا، قـال الآلوسـيّ: "وقيـل: إن زيادة "مـا" والتوكيـد بالثقيلـة لا يتقاعـد في إفـادة القطـع عـن "إذا"، نعـم لا ينظـر فيـه إلى الزمان بل إلى أنه محقّق الوقوع أبهم وقته"[133]، وهذا هو الظاهر.

و"يَأْتِيَـنَّكُمْ مِـنِّي هُـدًى": ورد الفعـل مؤكّـدًا، وفي ربـط الجـزاء بهـذا الشـرط رحمـة سـابغة وحكمـة بالغـة، ومفهومـه: إن لم يأتكـم مـنّي هـدى، فلسـتم مطـالبين باتبـاع شـيء، فـلا تكليـف إلا بعـد ورود الرسـالة، وإتيـان الهـدى مـن ربّ العالمين، وبلوغها المكلفين.

"هُـدًى": نكـرة في سـياق الشـرط تعـمّ كـلّ هـدى آتٍ مـن الله تعـالى إلا مـا

---

[131] السمين، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، مرجع سابق، ج298/1

[132] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1/ 443 بتصرف.

[133] الآلوسيّ، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: على عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية. بيروت، 1415 هـ، ج1/ 240.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نُسخ وبُدّل.

"فَمَنْ": من: اسم شرط يعمّ كلّ مكلّف من الإنس والجنّ، وقد ورد الوعد بحسن جزاء من اتبع الهدى بأسلوب الشرط؛ لأنه نصٌّ في السببيّة والمجازاة، وفي ذلك مقاصد منها: زيادة تطمين لقلوب العباد وتقوية رغبتهم في الجزاء الحسن؛ لأن دخول الجنّة لا يكون إلا بفضل الله تعالى وإحسانه، ولا يدخل أحد الجنة بعمله البتة، فلما جعله الله تعالى مستحقًّا بهذا الشرط، أصبح الدخول قريبًا كأنه في متناول يد من اتبع الهدى!

"هُدَايَ": نكرة مضافة تعمّ كلّ هدى آتٍ من الله تعالى، والإضافة إلى ضمير المتكلّم -جلّ جلاله- فيها من التعظيم والتكريم ما الله به عليم! وفي هذا بيان أن الوحي كافٍ للنجاة، وأنّ العقل أداةٌ لفهم الهدى والواقع، وليس مصدرًا مستقلًّا للتشريع، واتباع الهدى اتباع علم وعمل، فمن كان أكمل عقلًا، كان أحسن اتباعًا، ومن ضعف عقله ساء اتباعه، وقد زلّ من قدّم العقل على الهدى المنزّل، أو هوّن من شأن العقل في فهم النصّ والواقع؛ ونقل بعض المفسرين أن في الآية دلالة على إبطال التقليد[134].

"فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" "خوف": نكرة في سياق النفي تعمّ كلّ خوف، و"لَا هُمْ يَحْزَنُونَ": فعل في سياق النفي يعمّ، ومفهوم المخالفة أن من لم يتبع الهدى حلّ عليه الخوف والحزن.

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، الواو عاطفة لهذه الجملة على الشرطية، و"الَّذِينَ" موصول عامّ، "بِآيَاتِنَا": نكرة مضافة تعمّ، "أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ": "أصحاب": نكرة مضافة تعمّ، "النار": "أل" للعهد، ولكن لمَ عَدَلَت الآية عن أسلوب الشرط

---

134 الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج473/3

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم تجعلْه نسقًا واحدًا؟ ومبنى العقاب على العدل والقسط، والعدل يناسبه الشرط، فلماذا نحَتِ الآيةُ منحى الخبر الثابت غير المعلّق بشرط؟

والجواب أن العدولَ عن الشرط، وعدمَ اقتران خبر الاسم الموصول بالفاء أقوى في التعيين والثبوت ونفوذ الحكم، وهو أشدّ ترهيبًا وزجرًا وإيلامًا، فلم يلتفت إلى الحياة الدنيا وما يكون لهم فيها من فسحة وإملاء، فطوى ذكر الدنيا وانتقل إلى وصف عاقبتهم في النار، فقد أنفذ فيهم الحكم بالعقاب، وفي هذا الحكم تعريض وتشفٍّ من إبليس، وممّن اتبعه، وشفاء لصدر آدم عليه السلام وزوجه والمؤمنين.

خلاصة المقطع الثالث:

تعدّ هذه القصة بوقائعها أصلًا ومرجعًا في علم السنن الإلهية: الشرعية والكونية، قصّها العليم الخبير؛ ليعتبر بها بنو آدم عليه السلام على مرّ الدهور. وقد اشتملت على نعم الله تعالى على آدم وذريّته، من اصطفاء الله تعالى لآدم للخلافة في الأرض، وخلقه بيديْه، ونفخه فيه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وكشفه لعدوّه، وتعليمه الأسماء كلّها.

ثمّ خلق له زوجًا؛ ليسكن إليها، وأسكنه الجنّة، وهداه إلى التوبة، ويسّر له سبيل العودة والأوبة، وسخّر له ما في السماوات والأرض جميعًا منه، وبيّنت منشأ العداوة بين آدم عليه السلام وبين خصمه الأكبر الشيطان، وأبرزت حقيقة الصراع بين الحق والباطل، ووسائله، وميادينه، وعاقبته. وأوضحت أصولًا كلية: الهداية والغواية، والذنب والتوبة، والإصرار والاستكبار، والجزاء العاجل، والجزاء الآجل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner